





هنري رياض

التجاني يوسف بشير

شاعراً وناثراً

نشر وتوزيع

دار الثقافة

بيروت - لبنان

مكتبة النهضة السودانية - الخرطوم



هنري رياض

التجاني يوسف بشير

شاعراً وناثراً

دار الثقافة
بيروت - لبنان



الفصل الاول

اشراقة

يميل اكثر النقاد الى تقسيم مناهج الشعر لدينا الى اربعة مدارس هي : مدرسة الشعر الصوفى ، ومدرسة الشعر التقليدى ، ومدرسة شعر الوجدان ثم مدرسة الشعر الحديث. ولا شك ان عمومية هذا التقسيم لا تسمح لنا الا بالقول ان اشراقه انما تنتمى الى مدرسة الوجدان وبعبارة اصح الى مدرسة الوجدان الاجتماعى ، دون محاولة للبحث فى تفصيل عن اوجه الاختلاف بين شعراء المدرسة الواحدة .

ويقول النقاد انالموضوعالاول بالنسبة للشعراء الذين قرضوا الشعر منذ عام ١٨٦٠ حتى ١٩١٩ . كان هو التصوف .

وابرز شعراء تلك الفترة هم ابو القاسم احمد هاشم ومحمد عمر البناء ومحمد احمد هاشم وعبد الغنى السلاوى واحمد الازهرى ومحمد طاهر المجذوب .

وان شعراء المدرسة التقليدية قد اقتفوا اثر الشعرالقديم . ذى الديباجة الغزلية والدعوة الى الحضارة الاسلامية وشكوى الدهر والسخرية من بعض العادات والتقاليد البالية واشهر هؤلاء عبدالله محمد عمر البناء واحمد محمد صالح ومحمد سعيد العباسى وعبدالله عبدالرحمن وصالح عبد القادروحسيب على حسيب وعثمان بدرى .

أما شعراء الوجدان فهم الجيل الثانى من خريجى كليةغردون والمعاهد المصرية والجامعة الامريكية ببيروت ، مثل يوسف مصطفى التنيومحمد احمد محجوب ومحمد عشرى صديق ،وان

من بين فروع هذه المدرسة ، شعراء المعهد العلمي ، مثل الهادى عثمان العمرابى وعبد الوهاب محمد القاضى وشاعرنا التجانى يوسف بشير .

أما المدرسة الحديثة من الشعر ، فلم تظهر الا بعد الحرب العالمية الثانية ، وانتشار الافكار الديمقراطية والاشتراكية ، وهى تشتمل على فروع أيضا ، فهناك مدرسة الواقعية الحديثة، وهناك مدرسة الواقعية الاشتراكية ، كما ان ثمة مدرسةللشعر المطلق أو الحر .

وسنفصل فيما بعد رأينا فيما اذا كانت « اشراقة » تعبيرا عن وجداناجتماعى ام ذاتى . والسؤال الان هو : هل تضم اشراقة كل شعر للتجانى ؟

للاجابة على ذلك نقول : ان اشراقة لا تضم كل ما انتجته قريحة التجانى من شعر ، اذ انها اشتملت على مختارات من شعره .

وهى منتخبات كان قد خطها فى كراسة ، واحتفظ بها ، وبشر قبل وفاته بنشرها .

ويبدو لنا ان التجانى قد اختار القصائد التى الفها وقت النضوج ، دون القصائد التى قالها فى مرحلة الدراسة او المراهقة ، وبعبارة اخرى ، يخيل الى ان اكثر قصائده تبدو انها انشدت او نشرت ما بين الثانية والعشرين والسابعة والعشرين ، وان القليل منها لربما قيل قبل ذلك .

ولعل مما يؤيد ذلك ، ان الديوان لم يضم ثلاث قصائد نشرت للتجانى عام ١٩٣١ ، على ما نوضحه فى الفصل الثانى ، ولكنه ضم قصيدته فى رثاء محمد ابى بكر عليم فحسب .

واذا اخذنا من الاعتبار ، ان التجانى كان طريح الفراش اكثر

شهور عام ١٩٣٧ ، ويبدو انه لم يستطع الا تأليف مرثيته ختام اشراقة « فاحتفظها ذكرى » ، فان اشراقة تعتبر ، والحال هذه بنت خمسة اعوام فحسب، ولذلك، فان على من يوجهون النقدكثيرا لاشعارها ، ان يذكروا ان التجانى لم يجد فسحة من العمر لمراجعتها أو لنضوج ملكته الشعرية ، وان كانت ـ رغم ذلك ـ اشراقة فى ادبنا الحديث ، فى الواقع من الامر .

وعلى الرغم من اننى لم استطع ان اتحقق من تاريخ كل قصيدة فى الديوان ، الا ان ما اذكره قد يكون باعثا للدارسين للتجانى ، لتكملة ما بدأت .

ففى عام ١٩٣٣ نشرت له قصيدة «تحية» فى (مرآة السودان).

ونشر له فى عام ١٩٣٤ ـ الصوفى المعذب (الرسالة) ـ على قبر حبيب (الفجر ـ ٩) ـ مدامع ومجامر ـ كذلك الحب .

ونشر له عام ١٩٣٦ بمجلة ام درمان : ـ دنياى والنائم المسحور والقمر المجنون واللمحة الخالدة .

وقصيدته « فاحتفظها ذكرى » كانت عام ١٩٣٧ بطبيعة الحال، كما يغلب على الظن ان قصيدته «ثقافة مصر» انشدت عام ١٩٣٥ وان قصيدته « المعهد العلمى » كانت عام ١٩٣٣ اى السنة التى فصل فيها من المعهد .

ولعل مما حدا به الى ذلك أيضا ، اعتزازه بشعره واعتقاده بأنه رائد من رواد الشعر الحديث فى السودان .

والقارىء لاول قصائده « قطرات » ، يدرك فى يسر مدى افتخاره بشعره وتهليله وتصفيقه له وحفاوته به ، وخاصة قوله :

قطرات الندى رقراقة ... يصفق البشر دونها والطلاقه
فهى رفعة من عالم كله قلب ... خفوق ولوعة رفاقه

عالم الحسن والجمال ودنيـا … الحب والقلب وجده واشتياقه
يتحـدرن من « مفاجع » آيا … تي ومهوى مدامعي الرقراقه
ويرجعن من « مفاتن » دنيا … ي صدى يزحم الهوى ابواقه
من دمي يستدرها حر انفاسي … لهيبا .. اسميته اشراقـه

ولا أدل على ذلك أيضا من قوله في قصيدته « الادب الضائع » :

أنا ان مت فالتمسني في شعـ … ـري تجدني مدثرا برقاعـه
في يميني يراع نابغـة الفصـ … ـحى وكل امرىء رهين يراعه
وعلى هامتي اكاليل « سحبا … ن » وفي سترتي اداة مصياعه
رحمة لـلاديب ادركه اليـأ … س وهام الاديب بـين قلاعه
ما عسى ينفع البيان وماذا … كان يجني الاديب من اوجاعه؟
يا أديبا مضيعا من بني الدنيا … بحسب الاديب محض انتجاعه
انت يا رائد القريض وما أد … ت بسقط الورى ولا من رعاعه
انت قيثارة الجديد بك استظـ … ـهر من في الوجود سر متاعـه
ادب ملؤه الحيـاة وشعـر … مفعم بالسمو في اوضاعـه
ضاع: ويح الذي يغار على الـ … ـشعر وويح الاديب يوم ضياعه

ولقد عقب الاستاذ عز الدين الامين . على ذلك . في كتابه « مسائل في النقـد » (ص ٥٥) بقولـه : « والحق ان شعر التجاني شعر سام .. ولقد نادى التجاني بجانب دعوته لسمو الادب . نادى برأيه في هذه القضية التي يتنازعها النقاد من حين الى حين . تلك هي قضية الادب والحياة . ادب ملؤه الحياة وشعر مفعم بالسمو في اوضاعه .

« وسيظل بيته هذا من غير شك بيتا خالدا . وتوجيها سديدا للادباء والنقاد . ثم انا نجده يدعو قبل ذلك للتجديد في الشعر ، ويعيب الشعر التقليدي . لانه شعر لا يجاري الحياة ولا يتجدد بتجددها .. ثم ان مرمى التجاني على حرية الادب سيظل كذلك

أصلا ثابتا من اصول النقد الادبى .. »

ويقول ايضا مزهوا بنفسه مفتخرا فى قصيدته « وحى المحامد »:

نحن نشكو اليك عصرا تباهى (باقل) بيننا على سحبانه
لست ارمى على عواهنه القو ل ولست الحصور فى تبيانه
لى من الشعر كفة لم تشل قط وغيرى الشؤول فى ميزانه
انا ان عشت قد ضفرت لكم غارا كغار الرشيد فى بغدانه
لم تتوج به قياصرة الرومان فيما انتقيت من الوانه
ليكاد اليراع يهتز من شو ق فيملى على وحى جنانه
ان قدسا يفيض منك حريا ان يبث الحياة بين كيانه

وفضلا عن ذلك ، فان الشاعر الشاب ، قد جرؤ على نصح الشباب امثاله على العمل على توسيع افق مداركهم بقراءة الادب القديم والحديث ، اذ قال فى قصيدته « تحية » بمناسبة اصدار الاستاذ سليمان كشه مجلة « مرآة السودان » ، آخر عام ١٩٣٢ ، فقال :

قل للشباب وحى فيه نشاط ه الادبى واستنهض قوى كتابه
وانصح الى بعض الشباب وقل لهم عنى وبينهم كثير مشابه
حسن قيام الشعب واشرئبابه والوثبة الاولى وطفر شبابه
فتعلموا سحر البيان يلن لكم مااعتاص من رتج القريض وبابه

ومما يدل على اعتزازه أيضا ، قوله فى قصيدته « ثقافة مصر »:

عادنى اليوم من حديثك يامصر رؤى وطوفت بى ذكرى
كلما انكروا ثقافة مصر كنت من صنعها يراعا وفكرا

ويخيل الى ان التجانى لم يلجأ الى الاشادة بشعره ، الا لانه استشعر بان بعض الادباء قد طفقوا يقللون من شأن شعره . بل اتهموه بالغموض والغرابة من الالفاظ اللغوية . كما استشعر

بمنافسة حادة بينه وبين زميله وابن عمه عبد الوهاب محمد القاضى من ناحية وبينه وبين شعراء خريجى كلية غردون من ناحية اخرى ، مثل يوسف مصطفى التنى ومحمد احمد محجوب ومحمد عثمان محجوب وحسن طه .

وذلك فضلا عن ان فصله من المعهد ، جعله يحس بضرورة تقديم دليل على تفوقه نتيجة جهده ودراسته الخاصة .

ولقد توفى التجانى فى اغسطس عام ١٩٣٧ ولم تر « اشراقة » النور ، اذ لم يستطع طبعها قبل وفاته .

وحدثنى الاستاذ المبارك ابراهيم ، صديق الشاعر ، انه هو الذى حمل ديوان « اشراقة » مخطوطا الى القاهرة ، بقصد طبعه ، واستطاع ان ينشر بعض قصائده فى مجلة « الرسالة » .

وانه سلم الشاعر ابراهيم ناجى ، الكراسة المخطوطة ، للاطلاع عليها ، ولكنه احتفظ بها فترة طويلة ، اذ اعجب باشعارها .

وكان ناجى يقرضها لاصدقائه الشعراء ، فلا يردونها الا بعد لأى ، ولذلك ، ظل الديوان طى النسيان أو كاد سنوات كثيرة ، حتى ظهر للوجود لاول مرة عام ١٩٤٢ ، على ما ذكر لى ذلك ، صديقى خليفة عطية ، مدير مكتبة النهضة السودانية بالخرطوم، والذى تأكد من صحة ما رواه لى ، لدى مقابلته لوالد التجانى الشيخ يوسف بشير فى مايو عام ١٩٦٦ .

وقد طبع الديوان على نفقة الاستاذ على البرير بمعاونة او مساهمة من محمد محمود جلال ، الذى قدم الطبعة الاولى .

ويغلب على الظن ان الطبعة الاولى لم تكن تجاوز الفى نسخة ، وزع اكثرها بمصر ، ووزع القليل منها بالسودان ، دون ان يكون لها صدى كبير فى اوساط المثقفين .

واعاد طبع الديوان للمرة الثانية ، الاستاذ المرحوم عبدالله

ميرغني ، حوالى عام ١٩٤٧ .
وعندما نفدت الطبعة الثانية ، أقدم الاستاذ الامين على ، الذى كان يمتلك « المكتبة الجديدة ، بامدرمان ، على نشر الديوان على نفقته الخاصة ، بمطبعة التمدن ، عام ١٩٥٥ ، ثم قام والد التجانى بالاتفاق مع صاحب تلك المطبعة ، الحاج ابو زيد خليفة، على طبع الديوان طبعة رابعة عام ١٩٦٤ .
وكانت نسخ الطبعة الثانية خمسة الاف تقريبا ، ونسخ كل من الطبعتين الثالثة والرابعة ، ثلاثة آلاف نسخة ، على ما يذكر صاحب المطبعة .
وعلى هذا ، يكاد ديوان التجانى يحظى بقصب السبق ، لا من ناحية توزيعه فحسب ، بل من ناحية تكرار نشره ، اذ ان اكثر الدواوين المعاصرة ، لم تحظ بغير النشر للمرة الاولى او الثانية، ولكن لم يطبع ديوان منها للمرة الرابعة حتى الآن .
يخلص مما تقدم ، ان ولادة « اشراقة » ، كانت عسيرة الى حد بعيد ، وان سمى عليها مئات من فتيات هذاالجيل ، اللائـي خرجن فى يسر الى هذا العالم الكبير ، ورغم ذلك ، فان كثيرا من شعراء السودان ، يحتفظون بدواوينهم مخطوطة ، ويحول دون نشرها ضيق ذات اليد ، لا ضنهم بالادب على شعبهم .
وليست ازمة النشر قاصرة على الشعر فحسب ، بل هى أقسى فى مجال النثر .
لذلك ، فانه يتوجب على المثقفين فى بلادنا ان يعملوا على نشر التراث الاول من نثر او شعر ، فضلا عن نشر الانتاج الحديث.
ولقد حظى شعر التجانى بتقدير كبير ، اذ كان ولا يزال موضع الدراسة فى السودان وفى البلاد العربية أيضا .
وسنتعرض فيما بعد لاشهر تلك الدراسات .

ولقد أقامت لجنة التأليف والترجمة فى ١٤ ـ ٥ ـ ١٩٤٦ بنقابة الصحفيين بالقاهرة ، مهرجانا له ، والقيت فيه محاضرات قيمة عنه من كل من الاساتذة عثمان امين ومظهر سعيدوابراهيم ناجى ، واحمد علوش .

وقد اشتملت الطبعات الاخيرة من الديوان على بعض تلك الابحاث ، وفى عام ١٩٦٢ قام لفيف من الادباء بتقديم دراسات عنه بمناسبة مهرجان اقيم لمرور خمسة وعشرين عاما على وفاته، ونشرت فى كتاب « دراسات فى شعر التجانى » .

وقبل ذلك التاريخ ، كتب الاستاذ عز الدين الامين مقالا « بالايام » دعا فيه الى اقامة مهرجان للاحتفال بذكرى مرور عشرين عاما على وفاة التجانى . والى انشاء مجلس اعلى لرعاية الفنون والاداب . ورد فيه :

(والتجانى شاعر فذ بين شعراء السودان.. فهو رائد التجديد الشعرى بين شعرائه . ولكم مجدوه فى العالم العربى ...

ان كل ذلك من شأنه ان يدفعنا للاحتفال بالتجانى . وان يجسم لنا تقصيرنا فى حقه. فقد احتفل به سوانا ، ونحن ما زلنا غير عابئين بذلك ، كما ان غيرنا ما زال يضرب لنا الامثال بالاشادة بالنوابغ ... فمتى نعنى بنوابغنا هكذا ؟ ومتى تحظى الفنون والآداب عندنا بمثل هذه الرعاية والتقدير ، فننشىء لها مجلسا . ونهبه المال والسلفات) .

أما عن فن الشعر فى اشراقة . فيقول عنه الدكتور عابدين فى كتابه « التجانى شاعر الجمال» . ملخصا آراءه فى هذا الموضوع:

(وبعد ، فقد رأينا التجانى فى معظم شعره يسلك سبيل الشعراء المجددين ، فيراعى فى قصيدته التناسق :

١ ـ من الموضوع : فيبنى قصيدته على اساس معين بناء

متماسك الاجزاء . فلا تهافت بين المعنى والمعنى .

٣ ـ وفى الموسيقى : اذ يتوخى الشاعر التناسق بين تهافتا بين احساس واحساس .

٣ ـ وفى الموسيقى : اذ يتعرض الشاعر التناسق بين الموسيقى الخارجية والداخلية وبين المعانى والمشاعر التى يعبر عنها .)

اما من ناحية اسلوب التجانى فى الشعر . فيرى الدكتور عابدين . انه « يكثر من تجسيم المعانى الى حد الاسراف احيانا . والتعقيد احيانا ... » وانه يميل الى «الربط بين الصور والمدركات الحسية»، وكرر كثيرا فى معرض ابحاث الكتاب المختلفة ، ان التجانى « شاعر صادق » . وبعبارة اخرى ان اسلوبه الشعرى يمتاز بالصدق .

ولانجد مبالغة فى قوله : (التجانى فى اكثر شعره صادق الشعور ، احس احساسا عميقا وسرد للناس تفاصيل احساسه).

ولكن رغم ان شعر التجانى يمثل مشاعره وعواطفه وآلامه وآماله واحزانه وافراحه ورغبته فى الحياة وخشيته من الموت، أى يمثل ذاته ، الا انه انطوى على تعبير عن مشاكل الجماعة السودانية بأسرها ، وعن ثورة الشباب على الاوضاع السائدة والتقاليد البالية ، والافكار الرجعية ، بل ان المثالية والصوفية والحدسية التى كانت تتجلى فى بعض قصائده ، كانت بدورها تعبيرا عن أمله فى الوصول الى مجتمع ، يجد فيه الانسان الجانب المادى من الحياة ، مثل الاكل والملبس والمشرب والمسكن ، ميسورا موفورا ، حتى يمكن ان يشبع الجوانب النفسية او الروحية لديه .

واذا كان فى اشراقة جانب ذاتى وجانب اجتماعى . فاننا نرى

ان نثر التجانى يدل دلالة قاطعة على وجدان اجتماعى ، على ما سنوضحه فى فصل قادم .

واذا كان يصعب الحكم على الشاعر من قراءة قصيدة واحدة له او عدة قصائد ، بل قد لا يكون الحكم سليما الا بقراءة ديوانه او دواوينه ، فاننا نرى ان دراسة التجانى بالنظر الى نثره مثل شعره ، قد تفيد فى هذاالمضمار . وهو ما نأمل ان ننهض به فى هذاالكتاب .

الفصل الثانى

اضواء على اشراقة

ذكرنا فيما سبق ان « اشراقه » لم تضم كل قصائد التجانى.

ولقد اجمع كثير من اصدقائه على ان له قصائد لم تنشر فى الديوان ، مما حدا بى الى البحث عنها او عن بعضها ، على الاقل.

وهذه احدى القصائد التى لم تنشر بالديوان ، ولكن سبق للتجانى ان نشرها بجريدة « ملتقى النهرين » ـ (العدد ١٦٤ ـ ٢٦ ـ ٤ ـ ١٩٣١) ، بعنوان « بين الوصل والفراق » :

هى انت من اهوى وقاتلتى التى
خنت الوفاء وعز منك مزار

بالامس وقعت الحمائم بيننا
نغم الهوى وشدت لنا الاطيار

وسرت مياه الحب فيما بيننا
واليوم هجرك والضنى سيار

جنات عدن انت ساعة نلتقى
ولظى السعير نواك حين بدار

ولقد يقربك الخيال فأنثنى
لاضمه واذا به خطار

واذا به هو أنت ساعة قربت
تحت الخمائل بيننا الاقدار

وتعيدك الذكرى وما من وامق
الا ويورثه الضنى التذكار
ان كان سحرك فى جفونك قابعا
فسواك جاد عذابه المدرار
سواك مات به وغيرك مصطل
باواره ولمن عداك اوار
هذا فؤادى فانظرى تاموره
تبدو لعينك دونه الاثار
سبحانك اللهم كم من مقلة
للسحر فيها منزل وقرار
سبحانك اللهم كم من وجنة
يسرى شعاعك فوقها فتنار
تزهو على ورد الربى وكأنما
نبتت بغرسك فوقها الازهار

ولقد ذكر الاستاذحسن نجيله فى مقاله « التجانى كما عرفته » الذى نشر فى كتاب « دراسات فى شعر التجانى » انه لم يعثر على قصيدة التجانى ومطلعها :

لم لا يغذينا الهوى بلبانه
انا فى الشباب وانت فى ريعانه

وذكر نجيله انه افتقد ايضا قصيدة التجانى فى رثاء ابىالقاسم الشابى . ولم اعثر على القصيدة الاخيرة . ولكن التجانى قد نشر القصيدة الاولى بمجلة « ملتقى النهرين » . فى العدد ١٨٣ الصادر بتاريخ ١٣ـ٩ـ١٩٣١ ، بعنوان « وحى الحب » ، وها هى القصيدة :

لم لا يغذينا الهوى بلبانه ؟
انا فى الشباب وانت فى ريعانه !
قم فاسقنى خمر الهوى وسلافه
واشرب بكأسى من رحيق دنانه
يا بن البلابل رددت الحانها
واخا الهزار يجد فى تحنانه
غرد تجد اذنا صغت ومشاعرا
اذنت وقلبا عاد من خفقانه
وتغن يا بن الصادحات من الجوى
والنازلات على معاطف بانه
هذا الهوى واولاء نمن بروضه
افلا نغرد فى ذرى افنانه
خذ من شفاهك كل ما انا آخذ
تجد السلاف يهز ساقى حانه
يا من سلبت من الأياة شعاعها
وأخذت زهر الورد من فينانه
دار الخيال ورف حولك ساعة
ودنى وابعد وهو فى دورانه
فرآك تفضله مدى وتدفقا
ورآك ملء الكون فى وجدانه
سكن هواى بقبلة فياضة
بارق ما اهتز الورى لبيانه
ولتدر من أنا ؟ من اكون من الورى ؟
أنا من تلقى القول من سحبانه !
ان شاء البسك المشاعر حليه
ونضى الدمقس عليك من تبيانه

قم ضع يمينك فى هــواه مباركـا
واسمح بها ما شئت من جثمانــه

ولما كانت القصيدة المذكورة لم توقع بامضاء « التجانى » ، وان قصيدة « الروح » ، قد نشرت فى نفس العدد بجوارها ، دون توقيع ايضا ، بدا لى ان التجانى هو صاحبها ، وخاصة انها تماثل قصائده التى تتردد بين الشك والايمان ، بل يخيل الى انها البذرة الاولى لقصائده الاخرى ، مثل « ودعت امس يقينى » و«يؤلمنى شكى » و « الصوفى المعذب » و ((طفل)) ، وها هـى أبيات قصيدته « الروح » :

الروح ما الروح الا طــائر غـرد
لــه جنــاحان من نور وظلمـــاء
كطــائر الروض الا انــه بـــدا
يشدو هنالــك شدو الحائر النائى
يظــل يهبــط ذاو لمؤتلــق
وقــد يغــادر خضراء لخضــراء
لا العقل يهتك ما اخفــاه من حجـب
وعـين كل بصير جــد عميــاء
« الله » والروح كـم نسعى وراءهما
ونستعـــين بأمــوات وأحيـــاء
همـــا الخفيـان فى نور وفى غسق
ترفعـا عـــن اشارات وايمـــاء
سران مـــا نقب الانسان دونهمـــا
الا توغـل فى شـــك واعيـــاء
الويل للعقـل هـــذا مشكل جلـل
فكيــف ينظر فى عجـز وابطـــاء ؟

له الثبور وماذا عافه فمضى
يقلب الطرف فى ذعر ورعناء

لو ينزل العقل قبل الروح فى جسد
لم يلبث الروح سرا بين احشاء !

تكشفت رسل الآراء عن شيع
شتى وعن فرق كثر وآراء

فليت شعرى والانسان منصرم
أفى الخلود نصيب « للوريقاء »

يا أيها الروح كم تدنو بمقربة
وانت أبعد من يوح وعلواء

جرى وراءك « سقراط » فما علقت
كفاه منك بشىء وابن سيناء

لانت صعب على عقل الالى نزلوا
من ظهر آدم او جاءوا بحواء

يخلص مما تقدم ان « اشراقة » ، لم تتضمن الا بعض قصائد التجانى ، الامر الذى يستدعى بذل مزيد من الجهد لجمع باقى قصائده ، اذ انها جزء من تراث الشاعر ، يتوجب دراسته مثلما تدرس قصائده الاخرى المعروفة ، كما يتوجب جمع نثره ونشره ودراسته أيضا ، لان كلا من شعره ونثره مرآة لادبنا فى مرحلة هامة من مراحل تطورنا الفكرى والسياسى .

الفصل الثالث

نشأته وثقافته وصفاته

اولا : مولده :

ولد احمد التجانى بن يوسف بن بشير الكتيابى ، عام ١٩١٠ بحى الركابية بام درمان . بمنزل كائن بالقرب من شارع كررى . ويجاور حى المسالمة .

ولقبه ابوه بالتجانى . تيمنا بالتجانى صاحب احدى الطرق الصوفية المعروفة فى السودان .

وينحدر والد التجانى من « الكتياب » وهو احد فروع قبيلة الجعليين .

وانحدر من صلب والده ثمانية اولاد . كان احمد التجانى هو الثالث بعد بنتين ، ثم رزق والده بولدين اصغر منه ، احدهما يدعى محمد ، والآخر محمد علي . كما رزق بثلاث بنات أخريات .

ولا تزال اسرة التجانى تعيش فى نفس البيت الذى ولدفيه.

ولا تتصف طفولة التجانى بمميزات خاصة ، اذ قضى ـ فيما يبدو ـ طفولة عادية .

ولما ان بلغ اشده ولربما كان ذلك فى العاشرة من عمره تقريبا ، الحق بالخلوة . ومن ثمة بدأ يرتشف من منهل العلم الدروس الاولى فى المعرفة .

ولم يذكر لنا التجانى انه كان مغرما بلعب كرة « الشراب »،

او « البلى » ، ولكنه وصف لنا ذكرياته عندما تهطل الامطار ، وتبلل الارض ويفترش الصبيـة التراب ، لكى يبنوا منه بيوتا ومن الطين جمالا وعرائس . كيف لا والطين يفرح فى يدى التجانى :

يفرح الطين فى يدى فالهو   جاهدا اهدم الحياة وابنى .

ولما دخل التجانى الخلوة أصبحت الخلوة معبدا له يقضى فيها جل وقته .

ثانيا : فى الخلوة :

التحق التجانى بخلوة عمه الشيخ عبد الوهاب القاضى الكتيابى ، وتلقى فيها دروسه الاولى فى القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن . حتى « حصل » .

ولعلنا لا نبالغ اذا قلنا ان كل من درس فى الخلوة او الكتاب، يجد فى قصيدته « الخلوة » مرآة لنفسه فى ايام دراسته الاولى. وها هى قصيدته :

هب من نومه يدغـدغ عينيه   مشيحا بوجهه فـى الصبـاح
ساخطا يلعن السماء ومافى الارض   من عالم ومـن اشبـاح
حنقت نفسه وضاقت به الحيـ   ـلة واهتاجـه بغيض الرواح
وأهابت به الظلال وقـد نشـ   ـدن فى جلوة القرى والبطـاح
طوفت فى خيالـه ذكريات الر   وع واعتاده مطيف الجمـاح
ومشى بارمـا يدفـع رجليـ   ـه ويبكى بقلبه الملتـاح
ضمخت ثوبه الـدواة وروت   رأسه من عبيرها الفيـاح
ثورة صـورة خوافى مـا بيـ   ـن حنايـا صبينا من ريـاح
ورمى نظرة الى شيخه الجبـا   ر مستبطنا خفـى المناحى
نظـرة فسرت منـازع عينيه   ونمت عمـا به من جراح
حبذا « خلوة » الصبى ومرحى   بالصبا الغض من ليال وضاح

رب يوم أغر يزهو بدرى — نطاق وعبقرى وشاح
وظلال من الضحى ظفرت منـ — ـها بعقد من الصبا لماح
زهرات شتى منوعة الالوان — من سوسن الربى والاقاحى
متعت شمسها فعاودها الـ — ـفهوى يستقيدها للمراح
ونفوس سجى الكرى من حوا — شيها ودب الفتور فى الارواح
فارجحنت مهومات وما — تبرح مركوزة على (الالواح)
كلما لفها النعاس وأضفى — فوقها عالما ندى الجناح
قصف الرعد فى المكان ودوى — مرزما صاخبا قوى الصياح
فاستفاقت وهيمنت بعض اشـ — ـياء وعادت وعاد قصف الرياح
صور للصبا الاغر موشا — ة باحلامه وضوء الصباح
يدفق البشر من مفاتن دنيا — ها وتفتر عن سنا وضاح

ولا ريب ان القارىء ليس فى حاجة الى من يعين له مواضع الانفعالا تالانسانية الكثيرة الساحرة فى هذهالقصيدة، ولذلك لعله يكفى ان نذكر انالتجانى كان صادقا فى تصويره لمشاعره الذاتية ، لما ذكر انه عندما يصحو « يدغدغ عينيه » ، وانه كان يسخط ويحنق حتى اذا لم يجد بدا من الذهاب الى الخلوة ، داهمته ذكراهاالاليمة ، ثم مشى « يدفع رجليه » بارما، مستنشقا عبير المحبرة التى اندلقت على جلبابه .

ولما يصل ثائرا الى الخلوة ، كانيتلصص النظر الى الفكى « شيخه الجبار » ، ونفسه منطوية على الحزن والاسى ، ولكن رغم كل ذلك ، فقد كانت الخلوة بالنسبة له رمز الطفولة والبراءة والمرح .

ذلك ان الصبى كان يقرأ مهتزا الى الامام والى الخلف ، حتى يدب « الفتور فى الارواح » ، ويضرب الرأس اللوح مرارا وتكرارا وحتى « لفها النعاس » . ولكن كيف يتسنى للطالب

النوم ، وصوت الفكى يدوى مثل « قصف الرعد » او « قصف الرياح » !

وتكمل بعض ابيات من قصيدته « ثورة » صورة الطفولة فى السودان ، تلك التى يقول فيها :

يفرح الطين فى يدى فالهـــو … جاهـــدا أهدم الحياة وأبنـــى
كم أشيد الحصا قصورا وكم … اكبر من شأنها واقدر شأنى
وطنى فى الصبى الدمى والتما … ثيل ونفسى ومن أحبوخدنى
قال لهذا الصبى : ماذا يكفيك … اذا لم تكن الاعيـــب جـــن ؟
هذه يا أبى تصاوير مـــا تبـ … ـرح دنياى أو تزايـــل كونى
يصنع الغاب مزهرى ويشيد الر … مل عرشى ويبعث اللهو أمنى
تلك عرسى وانها من صنع نفسى … بيدى صنعتها .. وذيالك ابنى!
هى دنيا الصبا لاجنة الشيخ … تفيض النعيـــم من كل لـــون

ولقد عقب على ذلك الاستاذ عبدالله الشيخ البشير بقوله :

(ما قرأت قطعة شعرية تصور دنيا الطفولة كهذه القطعة من حيث صدق التصوير وسهولة اداثه وزفرة الحياة والحركة فيها حتى لأكاد اشتم منها رائحة الطفولة بل أكاد اشعر انى عدت صبيا وانى ذاك ؟) .

وعلى هذا ، لم يكن التجانى وحده يميل الى ذكريات الطفولة، اذ ان الانسان بطبعه يميل الى البراءة والبساطة .

ثالثا : فى المعهد العلمى :

بعد الانتهاء من الخلوة ، التحـــق التجـانى بالمعهد العلمى بامدرمان . ولذلك فانه نهل من العلوم الادبية وحدها ، من فقه ونحو وتوحيد وبلاغة وأدب ، ولكنه لم يحظ بدراسة العلـــوم الحديثة ، مثل الرياضة والجغرافيا والتاريخ وعلوم الطبيعة والكيمياء والاحياء ، التى لم تتضمنها مقررات المعهد العلمى الا

فى السنوات الاخيرة ، ومنذ عام ١٩٥٦ تقريبا .

ومهما قيل من تقريظ فى دراسة تلك العلوم الخمسة التى تلقاها التجانى ، الا ان مثل تلك الدراسة وحدها لم تكن تكفى لكى تجعل تفكيره علميا او عصريا .

ولذلك ، انحصر تفكير التجانى على دائرة الآداب وحدهـا ، ولعله خال ـ كغيره من معاصريه ـ ان دراسة الادب هى طريق الثقافة الوحيد ، ومن ثمة : لم يطلع التجانى على علوم الاقتصاد والسياسة والاجتماع .

وليس السبب فى ذلك ، عدم تدريس المعهد لتلك العلوم ، ذلك لانه كان يقرأ كثيرا من الكتب غير المقررة عليه ، ولكن السبب يرجع الى ان المجتمع الذى كان يعيش فيه ، قد مال الى الادب ميلا كبيرا ، باكثر من ميله للسياسة ، ولان الاستعمار لم يكن يسمح بنشر الثقافة الحديثة فى ارجاء السودان ، ولان الصحافة كانت تخشى التطرق الى المواضيع السياسية والمواضيع التى كانت تشغل اذهان الناس فى العالم الكبير او الصراحة فى مواجهة الاستعمار .

وهذا ، على عكس ما نلاحظه بعد عام ١٩٣٦ ، وخاصة ابان الحرب العالمية الثانية ، اذ بدأ طلابنا وشبابنا فى استيعاب النظريات الاقتصادية والسياسية المختلفة ، بوجه عام ، وفى دراسة النظرية الاشتراكية ، بوجه خاص ، ومطالعة المقالات التى تزدحم بها الجرائد ، والتى كانت ولا تزال تدعو الى تغيير معالم حياتنا تغييرا جذريا ، والمطالبة بتحقيق الاشتراكية والديمقراطية فى بلادنا ، وتخطيط اقتصادنا تخطيطا اشتراكيا ، يكفل حياة افضل وارغد .

ولكن اذا كان من المسلم به ، ان الافكار الديمقراطية

والاشتراكية ، لم تنتشر الا بعـــد الحرب العالمية الثانية ، فى السودان ، والا بعد الاستقلال بصفة خاصة ، فانه لمن العسف، والحال هذه ، ان نطالب التجانى بوضوح الرؤية فيما يتعلق بتلك الافكار ، اذ ينبغى علينا ان نحلـل اشعاره على ضــوء الثقافة الادبية ، التى كانت سائدة قبل عام ١٩٣٦ .

ومهما يكن من أمر ، فقد تفتقت ملكة التجانى الشعرية ، وهو لم يزل طالبا بالمعهد ، اذ نظم بعض القصائد ، وتبارى فى النظم مع زملائه ، ومطارحة الشعر ايضا ، وخاصة مع محمد عبـد القادر كرف والمرحوم الهادى عثمان العمرابى والمرحوم محمد عبد الوهاب القاضى .

وحدثنى كرف صديق التجانى بأن التجانى بدأ فى قرض الشعر ، وهو لم يزل فى السنة الثالثة ، وانهما كانا على رأس «جمعية الثقافة» ، التى كونها الطلاب . وخاصة اولئك الذين كانوا من ابناء العاصمة المثلثة .

وكان التجانى يجد مجالا لانشاد محاولاته فى الشعر ، فى تلك الجمعية ، مما كان له أثر فعال فى صقل ملكته الشعرية .

وكان من اقرب اساتذته اليه ، الاستاذ حسين منصور ، مدرس الادب العربى ، لان التجانى قد اعتاد التردد عليه كثيرا ، سواء فى منزله او مجالسه او ندواته .

وحدثنى استاذنا محمد عبدالله العمرابى ، صديق الاستاذ حسين منصور ، انه لطالما وجد التجانى فى بيت صديقه ، عارضا عليه محاولاته الشعرية الاولى ، بقصد تنقيحها أو وزنها ، وان صلة التجانى باستاذه لم تقتصر على المنزل فحسب ، بل امتدت للمقابلة فى اى مجلس او ناد كان يرتاده .

وكـان ينضم الى مجلس العمرابى وحسين منصور ، ابراهيم

يوسف سليمان وخضر حمد ، ومحمد عثمان عبد القادر والمغفور لهما الطيب السراج وعبدالله عبد الرحمن .

وكان التجانى وزميله المرحوم الهادى عثمان العمرابى يجلسان صامتين مصغيين لكل مايدور بين الاساتذة الكبار من حديث فى الادب واللغة .

وذكر لى استاذنا العمرابى . بأنه لا يزال يذكر يوم انسأله صديقه حسين منصور عن ديوان حسان ، فقرظه له ، ثم سأله ان كان يحفظ له مدحا للنساء بالعفة ومكارم الاخلاق ، فاجاب بانه هو قوله فى السيدة عائشة بنت ابى بكر الصديق رضى الله عنها :

حصان رزان ما تهيم بريبة

وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

ولما سمع التجانى ذلك ، قال ان حسان ليس من شعراء الطبقة الاولى ، بل طفق يقلل من شأن شعره .

وتجادل الاثنان . وانفض المجلس دون ان يقتنع احدهما بوجهة نظر الآخر .

ويشير التجانى الى حضوره لندوات ومجالس استاذه ، معترفا بفضله عليه ، فى قصيدته « ملاحن فيها الهوى والالم » ، التى ارسلها له ، بعد ان رحل الى مصر . وقد انطوت على وداع التلميذ لاستاذه ، وحسرته على عدم تمكنه من اللحاق به ، كما انطوت على الاشادة بالمواقف المشرفة . التى وقفها حسين منصور فى مواجهة الاستعمار حتى اضطر الى تقديم استقالته من المعهد ، والتى قال التجانى فيها :

وداعا هزار الربى والاكم — أريش الجناح وسيق القدم

أمسترجع أنا بعد الشباب — سنى الصبا وادكار الذمم

أفضت من الحجر فيمن أفاض ... وزايلت مهدى فيمن برم

أراوح فى صبية وادعين ... سؤاسية كصغار النعم

واغدو على البكر المشرقات ... اليك وفى الحالك المدلهم

وفى الفكر مركبه للنفوس ... وفى الارض مدرجة القدم

الى (ندوة) كمطيف الرجاء ... منضرة كبليغ الكلم !

الى (مجلس) نطف بالدعاء ... تصان الحقوق به والحرم

الى (معهد) انت يمنى يديه ... قداماه انت قسى أو رحم

تطير به صعدا للسماء ... لنبع بها دافقا بالحكم

والهبتها ثورة فى البلاد ... على جانبيها يشب العزم

تأكل اغرارها الواهمين ... وتسحق من كبرياء « العمم »

ولما اعتزمت لمصر الذهاب ... وآن لرأيك ان ينحزم

جنحت الى مزهرى فانتزعت ... ملاحن فيها الهوى والألم

شددت بكفيك اوتارها ... واودعت فيها شجى النغم

وقد ذكر لى صديقى الدكتور عقيل احمد عقيل ، بان القصيدة المذكورة لم تكن اعترافا من التجانى بفضل وجهاد استاذه فحسب ، بل كانت مجاراة له ايضا فى قصيدته التى القاها فى حفل اقامه المعهد فى آخر العام ـ كعادته ـ والتى قال فيها :

قياما قياما مع القائم ... فلا خير للحالم النائم

ولست بمثن على « احمد » ... ومفتى الديار ولا « الجارم »

وغيرهمو من ثراة البلاد ... من النفر القاعد القائم

الى ان ارى دعوة حقة ... ترد الاصول الى آدم

ولما قرأ الاستاذ حسين منصور قصيدة التجانى بمصر ، ثارت فى نفسه ذكريات مسقط رأسه « امدرمان » ، فارسل للتجانى قصيدة من نفس القافية والروى ، اشتمل عليها ديوانه « الشاطىء الصخرى » .

ولعل مما يؤكد عمق الرابطة بين التجانى واستاذه ، اعجاب التجانى بشعر استاذه اعجابا دفعه الى الاشادة به فى مقال نشره بالجريدة التجارية (العدد ١٥٥ ـ هـ - ٢٢ ـ ٢ ـ ٣١) بعنوان « الادب والفن عندنا » جاء به :

(انى لاعرف استاذا من الطبقة التى تغار على هذا الفن وكثيرا ماسعى الى تهذيبه وله فى ذلك القصائد الجمة التى لا تقل عن الشعر العربى متانة ودقة مصبوبة فى قالب من اللفظ العربى الصحيح المبنى على السهل الممتنع ولا ابخل عليك سيدى القارىء بذكر اسمه كما انى لا أخالك تجهل الاستاذ حسين منصور .

وفى الختام اضرع الى متعلمى الوطن ان يكونوا كلهم يدا عاملة فى رفع بلادهم الى مصاف البلاد الراقية وانزالها المحل اللائق بها من الفنون والآداب والذوق الانشائى والشعرى حتى نصبح أمة ولها مكانة من آدابها وفنونها .)

وعلى هذا ، فان فضل ذلك الاستاذ الكبير على التجانى عظيم ، لا يمكن التنكر له .

والحق ان التجانى ، لم يحفظ الجميل له وحده ، بل حفظه لغيره من اساتذة المعهد ، بل حفظ الجميل لاستاذه فى الصحافة ايضا .

فلقد كان الاستاذ الاكبر المغفور له الشيخ ابو القاسم احمد هاشم ، الذى أصبح رئيسا للمعهد العلمى ، منذ عام ١٩١٢ ، يعطف على التجانى عطفا خاصا ، بل دأب على توجيهه ورعايته ، حتى احيل للمعاش فى اواخر عام ١٩٣٢ ، بعد ان ارسى قوائم المعهد على اساس متين ، اذ كان هو اول من وضع لائحة للمعهد على غرار لوائح الازهر الشريف ، كما كان اول من ادخل نظام الشهادات العلمية من ابتدائية واهلية وعالمية ، واول من أسس بالمعهد

مكتبة علمية ضمت آلاف الكتب ، كانت ذخرا افاد منه الطلاب والاساتذة معا ، ولعل التجانى قد نهل منها كثيرا ، اذا كان يتعذر عليه بطبيعة الحال شراء كل كتاب يرغب فيه .

ولما توفى استاذه فى ٢ـ٤ـ١٩٣٤ ، رثاه شاعرنا بقصيدة حزينة مؤثرة ، عنوانها « مدامع ومجامر » ، وقال فيها :

يا أبا القاسم المطل على العا   لم من لحده ومن علوائه
لك عندى كبرى يد نبهت ذكـ   ـرى واستنفرته من اغفائه
لك من عاتقى مواثيق ما اجـ   ـدرها ان تزيد من اعبائه
كنت فى رفقة من الناس موتى   فانتهجت الردى الى نزلائه
آملا ان ترى هنالك احيا   ء فحى الرغام فى احيائه
بعض من فى القبور موتى وبعـ   ـض من كان فى فقدانه سبيل بقائه
بعض من فى القبور أوفر حظا   بنعيم الحياة واستيفائه
رب هب من لدنك روح ابى الـ   ـقاسم ما لم تهب الى نظرائه
هب له رحمة السماء وبارك   فى ذراريه وفى ابنائه

ولم يكن ابو بكر محمد عليم استاذا للتجانى بالمعهد ، ولكنه تأثر به مثلما تأثر باستاذيه ، وخاصة فى الفترة التى اصبح فيها عليم رئيسا لتحرير الجريدة التجارية وملتقى النهرين وشرع يكتب فيها مقالاته الافتتاحية الرائدة ، التى كانت تصدر بها المجلة ، والتى عالجت كثيرا من امراضنا وعيوبنا الاجتماعية ، الامر الذى جعل من عليم رائدا من رواد الصحافة والادب فى بلادنا ، وان غطى النسيان على تراثه العظيم .

لقد كتب عليم مقالات كثيرة ، لعله يكفى فى هذا المقام ، ان نورد عناوينها ، للدلالة على جوهرها واثرها ، وهى ـ دون شك ـ فى حاجة الى من يجمعها وينشرها ، خدمة للادب ، وها هى عناوين

المقالات التى كتبها فى الاعداد « ١٣٢ ـ ١٦٤ » العقل السامى ـ حياة الفرد لحياة المجتمع ـ الكذب والخيانة ـ التعود على حب العمل ـ الكبرياء والعظمة ـ الطمع خسة فى النفس ـ فساد الاخلاق ـ كسب المال وعلله ـ هذه الازمة فما علاجها ـ ما هى الفضيلة ـ النفوس المهذبة هى التى ترتقى ـ فساد الاخلاق ـ اشرف الغايات واحقرها ـ نظام المجتمع ـ الجهاد الشاق فى هذه الحياة ـ الحرية والعبودية ـ حول افتتاح نادى الخريجين بالخرطوم ـ الاقتصاد واجب فى كل شىء ـ تختلف الجنسية وتتحد الوطنية ـ التعليم وسيلة لا غاية ـ لذة الحياة حسن الذكرى ـ التعليم واثره فى الاخلاق ـ دخول جريدتنا السنة الرابعة ـ تنازع البقاء ـ مهنة التجارة ومثبطاتها ـ نظرة فى السياسة الخارجية ـ كما التقى النيلان ببعضهما ، التقى الشرق بالغرب ـ التربية الاخلاقية ـ الانفعالات النفسية ـ رضاء الناس غاية لا تدرك ـ آراء فى تربية الجنس اللطيف .)

ولما توفى عليم فى ٢٩ـ٤ـ١٩٣١ ، انطلق شاعرنا يعبر عن حزنه وحزن البلاد جميعها عليه ، اذ يقول :

أسف مر وآهات أمر	والتياع ملأ القلب شرر
كل من قيل له (مات) انزوى	يعصر القلب بكف من حجر
امة تفقد فيه أمة	وبلاد شكت منه الابر
شاعر الفصحى وما عودها	هذر القول اذا عم الهذر
ينفث السحر ومن منطقه	طالما اهتزت متون وغدر
وصحافى مشينا من خلفه	واقتفينا فى المواضيع الاثر
ان احرى الناس بالخلد الالى	وهبوا العلم شبابا وكبر
اخلصوا السعى له واستنزفوا	كل ما فى ذرعهم من مصطبر
هذه عبرة خل صادق	فى وداد والاخلاء غدر

كم وفى لك لا يلــوى عــلى   زخرف السلوى و يأبى أن يسر

رابعا : فصله من المعهد :

عرفنا ان التجانى كان أحد اعضاء « جمعية الثقافة » بالمعهد، بل عضوا بارزا فيها ، كما كان متفوقا فى دراسته .

لذلك ، كان من الطبيعى ، ان يكون له اصدقاء من ناحية ، وخصوم من ناحية اخرى ، تربصوا به الدوائر ، وغضبوا منه لدى اختلافهم معه فى آرائه ، كعادة الطلاب والشباب ، عندما ينظرون الى الامور بحماس ، ومن زاويةواحدة .

وتواترت الرواية على ان فصله كان اثر مناقشة له مع بعض زملائه حول شعر شوقى وحافظ ، فقد قيل بان التجانى قــد احتد . وقال ان الفرق بين شعر شوقى وحافظ ، كالفرق بــين القرآن الكريم . واى كتاب من كتب بنى البشر ، وقيل بأنه ادعى بان شعر شوقى فى مستوى القرآن من الفصاحة ، ويصعب الوصول الى حقيقة ما تفوه به التجانى .

مهما يكن من أمر ، فقد فصل التجانى من المعهد . وسنتناول فيما بعد مسألة فصله من المعهد ببعض الاسهاب ، اذ ان لى رأيا آخر فى هذا الصدد . ولكن كيفما كان السبب ، فقد كان فصله من المعهد كارثة محققة اصابت قلب شاعرنا فى الصميم ، اذ شعر بعداء المجتمع له عداء سافرا ، وبقسوة اساتــذته عليه . وتحدى زملائه فى الدراسة . ولذلك فاضت قصيدته « المعهد العلمى » . بعالم من الاسى العميق الدفين المؤثر :

هو مهدى ولئن حفظت صنيعه   فانا ابن سرحته الذى غنى به

ما زلت اكبر في الشباب واغتدى ... ما بين بخ ويا مرحى بــــه
حتى رميت ولست اول كوكب ... نفث الزمان عليه فضل شهابه
قالوا وارجفت النفوس واوجفـ ... ـت هلعا وهاج وماج قسور غابه
كفر ابن يوسف من شقي واعتد ... ى وبغى ولست بعابىء أو آبه
قالوا احرقـوه بل اصلبوه بل ... انسفوا للريح ناجس عظمه واهابه
ولو ان فوق الموت من متلمس ... للمرء مد الى من أسبابه !!

بل لعلنا لا نبالغ اذا قلنا ان البيت الاخير وحده ينطوى على عالم من الالم الدفين العميق .

خامسا : ثقافته :

نهل التجانى من معين الدروس الدينية واللغوية التى تلقاهـا بالمعهـد .

وأملى على كرف ، لما سألته عن ثقافة صديقه ، ما يلى :

(كان التجانى اثناء دراسته فى المعهد، يدمن الاطلاع فى الكتب الادبية والتاريخية وكتب المتصوفة .

ومن أشهر الكتب التى قرأها ، كتاب « الملل والنحل » لابـن الفتح محمد عبد الكريم ابى بكر احمد الشهرستانى ، و«الرسالة القشيرية » لابى القاسم عبد الكريم هوزان ، و«الحكم » لابـن عطاء الله السكندرى .

وكان لهذه الكتب وغيرها ، أثر بعيد فى ارهاق حسه ، مما أضفى على اسلوبه ذلك الغموض الذى يبدو هنا وهناك فى بعض تعابيره ، وخاصة فى قصائده : « قلب الفيلسوف » و«الله » و « انبياء الحقيقة » و « الصوفى المعذب » .)

وبرهن ان التجانى لم يقتصر على دراسة الشعر الجاهلى ، بل

درس دراسة مستفيضة واعية الشعر العربى . قديمه وحديثه ، ويتضح ذلك فى كثير من مقالاته ، وخاصة مقاله « فى المستوى الشعرى للامم » ، الذى نشر فى مجلة الفجر فى العدد السابع ـ (١ـ٩ـ١٩٣٤) ، والذى يقول فيه معتزا وفخورا بثقافته الادبية :

(مما نحمد عليه الله ان دراستنا للشعر العربى لم تكن من نوع الدراسات التى يتناولها بعضهم ناقصة من كتب العصر مبتورة من بين يدى الكتاب . ثم يصدرون عنها وهم اشد قنوعا واكثر ثقة فى نفوسهم بما فقهوا من صور الادب واستظهروا من الوانه .. انما كانت دراستنا له دراسة استقراء وتفهم يؤسسها انقطاعنا الى قديمه ...

اجل مما نحمد عليه الله ان مهد لنامن دراسة الشعر العربى ما يؤهلنا للحكم عليه فى ضوء الحديث والبحث عما أثر فيه من عوامل وعمل فيه من مؤثرات فى كل ما مر به من اطوار ..)

وكان التجانى دائم الاطلاع على المجلات المصرية ، مثل البلاغ الاسبوعى والمقطم والهلال والمجلة الجديدة وابولو وعلى آخر منتجات الفكر العربى عامة ، والمصرى خاصة ، بل ان التجانى أقر بفضل الثقافة المصرية فى صراحة وقوة ، اذ قال :

كلما انكروا ثقافة مصر كنت من صنعها يراعا وفكرا .

ولذلك ، كان من الطبيعى ان قرأ التجانى ـ كمعظم معاصريه ـ مؤلفات ابراهيم عبد القادر المازني وعباس محمود العقاد وطه حسين واسماعيل مظهر واحمد أمين وحسن أحمد الزيات كما قرأ ما نقل من اللغات الاجنبية الى العربية ، وكان قليلا ، الى درجة تمكن المثقف على الاطلاع على معظمه .

ويبدو ان التجانى كان معجبا بروايات شوقى الشعرية، وانه تأثر بها تأثيرا بالغا . مما دفعه ـ وهو طالب بالمعهد ـ ان يكتب

نقدا « حول رواية مجنون ليلى » (الجريدة التجارية ـ العدد١٥٩ ـ ٢٣ـ٣ـ١٩٣١) .

ولقد اطلع على الشعر المهجرى أيضا ، وعلى الشعر السورى واللبنانى ، وله فى ذلك رأى نود ان نثبته . وقد نشره بمجلة الفجر (العدد ٦) . واشتمل عليه مقاله : « فى المستوى الشعرى للامم » :

(والادب السورى ادب « كنيسة » يتحرق على « مجامره » الشعراء والكتاب وتستاف من « عطوره » نفوسهم الهائمة التى طبعت على الرقة واللين وحب الجمال ...

أما المستوى الشعرى لهم فهو حيث تركه (جبران) خيال وافراط ما تكاد تتبين معه الا متعة الخيال .)

ونقد التجانى عام . ولذلك يعتبر نقدا سليما للادب المهجرى، وخاصة ان كثيرا من شعراء المهجر قد أمتد بهم العمر، وانضجتهم التجارب ، وانتجوا روائع القصائد فى الفلسفة وفى الطبيعة .

ونعتقد ان قراءة التجانى لاشعارهم ، كان لها بعض الاثر فى شعره . وخاصة عندما يميل الى استعمال بعض الالفاظ التى اكثر شعراء المهجر من تردادها . مثل الغاب والهزار والمزهروأيار ونيسان . وعندما يمزج عواطفه الانسانية بظواهر الطبيعة المختلفة . لقد تأثر التجانى بشعر المهجر ، مثلما تأثر الشابى والهمشرى وابناء جيله كله .

ولقد اشار التجانى فى غير موضع من مقالاته . بانه قرأ الشعر الغربى مترجما الى العربية . ولا نشك ، والحال هذه . انه اطلع على ماترجم منه فى الرسالة والثقافة وابولو .

فمنذ ان صدرت ابولو عام ١٩٣٢ وهى تنقل الى العربية بعض مقطوعاتمن الانجليزية والفرنسية . ولعله يكفى ان نذكر بعض

القصائد فحسب وهى : (ليالى الفريد دى موسيه ــ ووداع هكتور لشلر ــ ومرتيه لملتون ــ وعمريات الخيام ترجمة ابى شادى ــ وما اعظم الهم لتوماس هاردى ــ والطفل النائم لهوجو ــ والزمن والحب لشكسبير ــ والى قنبره لشلى ..)

ونعتقد ان تلك القصائد وغيرها . لربما حازت على اعجاب التجانى بوصفها شيئا جديدا عليه ، الا اننا نشك فى انهالقحت تفكيره ثقافيا ، على اى وجه من الوجوه .

ورغم عدم تأثره بتلك التراجم ، الا اننا نعتقد انه اعجب ببعض شعراء ابولو ، مثل ابى القاسم الشابى وابراهيم ناجى . واحمد زكي ابو شادى ومحمد عبد المعطى الهمشرى ، كما كان يعجب ايضا باشعار عمر ابو ريشة وعلى محمود طه .

ولم تقتصر ثقافة التجانى على كل ذلك فحسب . بل انه اطلع على معظم ان لم نقل على كل الادب السودانى ، وانه كان يقرا الجرائد والمجلات السودانية أولا باول ، بل كان من اوائل المساهمين فى تحريرها ، على ما سيتضح ذلك من الفصول القادمة .

سادسا : صفاته واخلاقه :

كان التجانى ضعيف الجسم نحيف العود متوسط الطول ،غائر العينين . وكانت تعلو وجهه مسحة من الشحوب والوجوم تضفى عليه دائما صفة الرجل الجاد . وكان لصوته بحة محببة .

ورغم تلك الجدية . فانه كان رضى الخلق محبا للناس ، يحترم الكبير والصغير ، ويعامل الناس فى رفق ولطف ولين . ولم يحاول ان يخدش او يجرح احاسيس احد ، ولكنه لا يميل الى الحديث كثيرا ، اذ انه كان اجتماعيا يتعرف على ابناء حيه

والاحياء المجاورة ، ولذلك كان له اصدقاء واصحاب كثيرون .. نذكر منهم على سبيل المثال ـ غير من سبق ذكرهم ـ عبد القادر ابراهيم تلودى وطراف النميرى والتجانى عامر وعوض ابو زيد وابراهيم يعقوب وداود سعد وابراهيم سليمان منديل وجوزيف لطيف صباغ وخالد آدم ويحيى محمد عبد القادر والطيب محمد خير وجعفر باكر جعفر وحسن محمد الامين ومحمد احمدالخليفة ابراهيم والريح عيدروس وسعد سليمان تادرس وصادق حنا والخير هاشم ويوسف التني وبولس سلامه وكان له كمعظم الشباب امثاله « شلة » للانس والسمر احيانا .

وكان التجانى مرهف الحس الى حد بعيد ، واحترامه الشديد لنفسه وكبرياؤه الشخصى ، جعله يبدو لبعض الناس ، كما لو كان مغرورا مزهوا بنفسه ، وخاصة لميله لمجالسة كبار العلماء والاساتذة ومناقشتهم ، ولم يكن يصدر ذلك عنه الا رغبة فى الاستفادة بمزيد من المعرفة واعتدادا بنفسه ولميله الطبيعى للعزلة .

واعتاد التجانى على ان يتغنى بشعره فى عزلته ، او بين الاقربين من خلصائه واصدقائه .

وقد زاده المرض نحولا كما اشتدت حساسيته منه ، الامر الذى نتناوله بالتفصيل فى الفصل القادم .

الفصل الرابع

مرض الشاعر

عاش التجانى سبعة وعشرين عاما ، واقتطفته يد المتون فى ريعان الشباب عام ١٩٣٧ ، بعد أن أنهكه الداء الوبيل ، الذى طغى بكلكله على رئتيه ، دون ان يستطيع التغلب عليه ، وأنى له ذلك ، والفقر المدقع لا يسمح له باشباع حاجاته الضرورية او الاستمتاع باوقات فراغه او الخلود للراحة .

ولربما ساعد على تدهور صحته وتشاؤمه وعصبيته وضيق خلقه فى آخر عمره .

ويصعب ان نحدد الوقت الذى ألم به المرض ، وان كان من المسلم به انه مات نتيجة مرض الصدر ، وان المرض كان ذا أثر فعال على نفسه .

ويغلب على ظنى ان التجانى عانى من المرض خلال سنتين او ثلاث سنوات فحسب ، وانه ضاق ذرعا به ، حتى انه ابتعد عن معظم صحابه واصدقائه ، كما نفر من الجلوس مع الناس ، بل ذهب الى أبعد من ذلك ، احيانا ، اذ كان يأمر والده ــ أعز الناس لديه ــ بالابتعاد عنه ، حتى استشعر بقسوته فى مواجهته ، ولكن اغلب الظن ، ان التجانى المسكين كان ينوء تحت اثقال الداء ، الذى مزق صدره ، وحطم امانيه ، وجعله قاب قوسين او ادنى من الموت ، اذ كان داء الصدر وقتئذ فتاكا ، بل داء عضالا ، والشائع الا برء منه ، وعلاجه مستعصى بالسودان ، ولذلك يئن

ضحيته . تحت رحمته . ومن ثمة ، احس التجاني بان الداء قد اختزل جسمه اختزالا بل شوى عظامه في حرقة بالغة . وامتص دمائه . حتى ضعف عوده . واصبح هيكلا عظميا لا يستطيع فكاكا اوحراكا . وغارت عيناه . ورجفت اوصاله . واستبد به الهم . حتى صرخ قائلا . وكأنه يرثي نفسه ، قبيل وفاته . في قصيدته « فاحتفظها ذكرى » :

يا «أنيس» الحياة يقطر منك الـ   طيب نبلا وتعبق الاخــــلاق
يا أخا الروح عادني منكم الغيـ   ث كثير وليس فيه ابتـــراق
غمرتني نعمى يديك على حين   تجنت على هواى الرفــــاق
ما على القلب منهم وبحسبي   صاحب ملء روحـــه اشفاق
ايها الشاعر المجيد ومجن الشـ   عر مما تدوى بـه الآفــاق
ارأيت الصديـــق يأكل الدا   ء ويشوى عظمـه المحــراق
مارد هده السقـــام ولكـن   صبره الجم للضنـى دفـاق
جف من عوده الندى فتعـرى   وتنفـــت مـن حوله الاوراق
وذوى قلبه النضير وقد كـــان   لـــه في زمانـــه تخفـــاق
رحم الله عهده فلئن عــــا   د فعندى لدهرنـــا ميثـــاق
وانا اليوم لا حراك كأن قــد   شد في مكمن القوى اوثـاق
بت استنشق الهواء اقتســارا   نفس ضيق وصـدر طـــاق
وحنايا معروقـــه وعيــون   غائرات ورجفـــة ومحـــاق
ما لنا دون ذا احتيال فان الـلـ   ـه في علمه الشئون الدقـاق
لي رجاء في رحمـة الله لمـــا   وسعت في الحيـاة ما لا يطاق
فالشفاء الشفاء يا رب والعفو   وزدها قوى اذاهـــا الوثاق
كيف اجزيك يا أنيس وما لي   من يد بالجزاء مثلي تســاق
فالقريض الذي تقدر لا اعلـ   ـم ان كان في الجــزا يشتاق

فاحتفظها ذكرى فان متفاقرأ بينها الحب ما عليه مـــذاق
او حيينا فسوف نقرأ فيهـا فترة لا اعادهـــا الخـــلاق

ولقد صدر الاستاذ محمد فهمي فى كتابه « روائع شعراء الجيل » ، القصيدة المذكورة بما يلى :

(ننشر هذه النفثة الحارة من نفثات الشاعر المأسوف عليه المرحوم التجانى يوسف بشير ، وهى قصيدة من اسمى ما قرأت من الشعر في روحها وفى معانيها وفى ما تحمل من أسىوشجن ومن دموع وآلام .

هى قصيدة من قلب ممزق قد نال منه تنكر الصديق ومجافاة وقسوة المرض والاذى المتكالب ومـا لقى فى العالم مـن عذاب واخفاق فخرجت صادقة مخلصة .

هى قصيدة متفجرة من نفس تشعر بانها فى كل ساعة يعدو عليها الاضمحلال .

وتتعادى نحوها ذئاب المنايا غير رقيقة ولا لينة .. والقصيدة مهداة الى صديقه الشاعر الكبير الاستاذ أنيس)

كان التجانى ذا حساسية بالغة ، وقد زاده المرض احساسا بقيمة الصحة والعافية . وترسبت في نفسه من جرائه آلامدفينة عميقة . اذ انك لا تجد فى قصيدته الاخيرة روح التجانى المتحررة الثائرة . ولكنك تجد نفسالانسان الضعيفة المستسلمة .

لقد كان المرض احد الاسباب التى جعلت طعم الحياة مرا فى نظر التجانى . وكان من بين الاسباب أيضا فصله من المعهد ،ولكن لعل السبب الرئيسى لبؤسه وبؤسنا هوما كانيعانيه ـ ولانزال ـ من الفقر وانخفاض مستوى المعيشة فى بلادنا ، ولكن قبل ان نتناول البحث عن الحرمان في شعره . نرى لزاما علينا اننبحث فى ايجاز عن الوجدان الاجتماعى للتجانى كشاعر وناثر .

الفصل الخامس

الوجدان الاجتماعي

الانسان كائن اجتماعي ما في ذلك من ريب . ولذلك ، فانه يؤثر في المجتمع الذي يعيش فيه ، كما يتأثر به دائما .
وفي المجتمع الفردي ، لا يمكن القول ان الانسان يعيش فيه منفردا او مستقلا بذاته ، كما لا يمكن الادعاء بانه لا يأبه بالتعاون والتكافل مع غيره من افراد الجماعة ، ولكن رغم ذلك ، يعتبر وجدان الفرد العادي ، وجدانا ذاتيا او انفراديا . اي انه وجدان يغلب المصلحة الخاصة في الاعتبار الاول ، وبعبارة اخرى ، فما دام المجتمع يقوم على الملكية الخاصة ، فان التربية التي يحظى الانسان بها ، تكيف حياته ، وتعلمه بل تجبره على تغليب مصلحته الخاصة ، للاثراء سواء عن طريق مشروع او غير مشروع ، ولحيازة اكبر عدد من الاشياء او أضخم مبلغ من الاموال ، للتمتع بها وعائلته ، وتقتصر آماله ومطامحه على اقتناء القصور والحدائق الغناء وافخر الثياب والاثاث ، وتتركز كافة افكاره حول الماديات والمتع الحسية ، ولا يعتبر ـ والحال هذه ـ التعاون مع الغير أو خدمة الجماعة او التثقيف الذاتي ، الا أمرا عارضا يمارسه او يلوذ اليه بعض الوقت .
ولقد صور الاستاذ محمد احمد محجوب النزعة الفردية في قصيدته « نفسي » ، (النهضة ـ العدد ٦ ـ ٨ـ١١ـ١٩٣١) ، وصدرها بمقدمة مؤثرة عبر فيها ـ في نظري ـ عن نفسية جيل باكمله ، اذ قال :

(استحوذت على فى الايام الاخيرة فكرة مؤداها ان الكل فى هذه الحياة يعيش لنفسه ويتفانى فى حبها واذا نال الناس بعض الخير منها فما هو الا من قبيل فتات الموائد يصيبه المساكين والفضوليون.

وصرت ارى ان حبنا لمختلف انواع الجمال ومنتوجات الفنون ما هو الا حب هذه النفس يتمثل فى العالم الخارجي وان جرينا وراء تحصيل العلوم والآداب وجمع المال ما هو الا ابتغاء مرضاة النفس .

وقد يبدهنى سائل : « اذن لماذا تقدم شعرك ونتاج أدبك للناس وقد كتبته من اجل نفسك ؟ »

فاقول : « انشره من أجل نفسى طلبا لشهرتها واشباع كبريائها » وانى لارى ان جميع الناس يحسون بهذا الشعور ولكنهم لايقدمون على اظهاره وذلك حبا لنفوسهم وخوفا من ان ينتقدهم الآخرون وبهذا اكون أقل الناس حبا لنفسى) .

والبيت التالى هو جماع فلسفته، بل هو جوهر الفلسفة الفردية والمجتمع الفردى :

أنا لا افارق حب نفسى ساعة ··· والكون أجمعه لذلك يجهد

وعلى هذا ، كان من الطبيعى ، ان يكون بعض شعر التجانى ذاتيا فرديا ، ذلك ان الشعر فى بعض المسائل الخاصة ، يعبر بطبيعته ، عن حالة خاصة للشاعر ، كما ان الشاعر فى كثير من الاحيان ، لا يميل الى التعبير عن نفسه، الا ان ساوره انفعال عميق أو عاطفة جامحة او تفكير عميق ، كما انه ما دامت دراسة الشاعة وثقافته واخلاقه قد قامت على اساس وجوده فى مجتمع فردى ، فلا مفر له عن العواطف والاخلاق الفردية .

ولذلك فمما لا جدال فيه ، ان شعره الغزلى شعر ذاتى ،وكذلك بعض قصائده مثل « فى زورق » و « دمعة على طفل » و«اللمحة

الخالدة » و « على قبر حبيب » .

وفضلا عن ذلك ، فان بعض اشعاره فى وصف الطبيعة ،تعتبر من الشعر الذاتى .

اما فيما عدا ذلك من قصائد . فاننى اعتقد ان التجانى وان كان صادقا فيها فى التعبير عن انفعالاته النفسية او تجاربه الذاتية أو مشاكله الشخصية أو آرائه الخاصة . الا انه كان يعبر فيها ــ فى نفس الوقت ــ عن روح انسانى او ان شئت فقل عن وجدان اجتماعى اى واقعى .

ولذلك ، فان المواطن السودانى يتجاوب مع مشاعر التجانى فى قصيدته « الخلوة » . وينفعل معه فى كل بيت من ابيات قصيدته«فى المعهد العلمى»، ويأسى معه فى«دنيا الفقير» ويسخط معه فى «الادب الضائع» . ويطرب معه للدوبيت « فى الادب القومى » ويشاركه اعجابه فى «ثقافة مصر» . ويتألم معه فى قصائد شكه ورثائه ويعجب معه فى مدحه لعظماء المؤرخين والشعراء والكتاب فى السودان .

وعلى هذا فاننا نعتقد ان القارىء لنثر التجانى وشعره ،يمكن له ان يدرك فى يسر ان التجانى كان ذا وجدان اجتماعى،ذلك لانه لم يكن يرغب فى العيش لنفسه فحسب ، بل بغرض تغيير المجتمع الذى عاش فيه . ومذهبه فى الادب ، والحال هذه ، هو الواقعية .

فعلى الرغم من انه كان يعمل فى وظيفة مصحح بالجريدة التجارية منذ عام ١٩٣١ . وبملتقى النهرين . فيما بعد ذلك ايضا، الا انه لم يتقيد بحدود وقيود وظيفته فحسب ، بل ساهم بالكتابة تشجيعا للادب من ناحية . وعملا على تقدم وازدهار الصحافة من ناحية اخرى .

ويتضح ذلك جليا فى مقالاته « الادب والفن عندنا » (الجريدة التجارية ــ العدد ١٥٥ ــ ٢٢ــ٢ــ١٩٣١) . و« حول رواية

مجنون ليلى » (الجريدة التجارية ـ العدد ١٥٩ـ٢٣ـ٣ـ١٩٣١)، الاجرام فى التاريخ (ملتقى النهرين ـ العدد ١٦٣ ـ١٩ـ٤ـ ١٩٣١) الصحافة (ملتقى النهرين ـ العدد ١٧٧ ـ ٢ـ٨ـ ١٩٣١) .

ويخيل الى انه ساهم ايضا فى كتابة مقالات بمجلة النهضة السودانية ، وان لم تكن بتوقيعه ، وسنتناول ذلك بتفصيل اوسع فى فصل قادم .

وساهم بانتاجه النثرى فى مجلة «الفجر» . فكتب مقالات نذكر منها : « فى المستوى الشعرى للامم» (العدد ٦ ـ١٦ـ٨ـ١٩٣٤) « مشكلةادبية كبرى بين الشاعر والناقد » (العدد ١١ ـ ١ـ١١ـ١٩٣٤)

ورغم انه كان المحرر الاول فى مجلة «ام درمان» ، التىاصدرها المرحوم محمد عبد الرحيم عام ١٩٣٦ ، ويتقاضى اجرا على ذلك بطبيعة الحال ، الا ان مقالاته فيها . كانت تدل على انه كان يهدف من التحرير غايات اجتماعية سامية ، وليس مجرد اداء لوظيفته ، اذ انها تدل على وجدان اجتماعى بارز وممتاز ، وستكون تلك المقالات محل البحث ، عندما نتناول نثره فيما بعد .

لكل ذلك ، يمكن لنا ان نقول ، ان التجانى كانيسعى الى الرزق ، ليعمل مصححا تارة او محصلا تارة اخرى ، كغيره من الناس ، ولكنه عاش حياته يدرس ويجول فى آفاق الفكر والمعرفة . وكان ذا هدف واضح محدد ، هو نشر الثقافة بين المواطنين . ونقلالمعرفة الى غيره ، سواء عن طريق النثر او الشعر .

ولذلك ، كانت مقالاته بالجريدة التجارية وملتقى النهرين ،

من بين اسباب تقدم وتطور المجلة ، كما كان من بين الاسباب أيضا، المقالات الافتتاحية الرائعة التى دبجها قلم استاذه ابى بكر محمد عليم ، اذ انه بتعاون التلميذ مع استاذه اتخذت المجلة طابعا ادبيا زاهيا ، بعد ان كانت مقالاتها مقصورة على النواحى التجارية والزراعية فحسب .

وأثارت مقالات التجانى فى « الفجر » نقدا شديدا ، وكانت مقالاته بمجلة (ام درمان) ، تهدف الى تطوير الحياةالاجتماعية عموميا . فى حين ان صاحبها كان يهدف الى خدمة التاريخ فى الاعتبار الاول . وعلى هذا لم تكن حياة التجانى خمولاو كسلا اوتراخيا او جريا وراء الشهوات والملذات الحسية او البدنية ، بل كانت حياة جادة هادفة ، اذ اشتعل فؤاده حماسا وقلبه لهيبا، وفكره ازدهارا ، لكى يغير من البناء الاجتماعى لمجتمعه ، ولكى يطوره الى افضل ، وبذل من وقته وراحته ، ومن اعصابه ودماء شبابه ، الكثير لكى يشق طريقه فى الحياة ، ولكن ما كان يستقر فى عمل ــ أبسط عمل ــ حتى تتقاذفه امواج الحياة من جديد ، وتقهره ليترك عمله الى عمل آخر ، ورغم صراعه ومثابرته على الحصول على عمل جديد ، ورغم عداء بعض الناس له ، وحسد بعض زملائه ، استطاع التجانى ان يكون احد الكتاب القلائل فى كل مجلة صدرت أثناء حياته ، ولهذا كانت حياة التجانى مثالا للشباب المناضل المثقف .

ويرى بعض النقاد انالتجانى كان يهدف من وراء نثره او شعره، الى الظهور او اثبات تفوقه على اقرانه او التنفيس عن نفسه ، ويضربون لذلك مثلا ، انشاده للشعر بمناسبة وفاة بعض العظماء او مدح بعض العلماء ، ولكننا نرى انه ــ سواء فى شعره ام نثره ــ لم يكن يصدر عن غريزة حب الظهور او الشهرة

ولكنه ــ في الاعتبار الاول ــ كــــان ينفعل بالاحداث الجارية المحيطة ببلاده ، ويعبر عن عواطفه تجاه اساتذته او زملائه ،او العلماء الكبار فى البلاد .

وقد عرفنا علاقة التجانى بابى القاسم احمد هاشم وابى بكر محمد عليم ومحمد عبد الرحيم ، ولذلك فان قصيدتيه فى رثاء كل من ابى القاسم وابى بكر تعبير عن عواطفه الذاتية الحميمة الصديقة نحو كل منهما من ناحية ، كما انها تعبير عن حــــزن الشعب لدى فقد عظيمين من ابنائه ، من ناحية اخرى .

وقصيدته فى مدح محمد عبد الرحيم ، تقدير للمجهود العظيم الذى بذله فى سبيل تدوين التاريخ السودانى .

والحق ان المغفور له محمد عبد الرحيــــم ، الذى توفى فى ٤ـ٦ـ١٩٦٦ يعتبر الرائد الاول فى مجال نشر التاريخ ، ولئن نشر فى حياتــــه نفثات اليراع ، والنداء فى دفــع الافتراء ، والصراع المسلح على الوحدة فى الســـودان ، والعروبــة فى السودان ، فان تراثه الذى سبق نشره مثل مؤلفاته المخطوطة ، يجب الاهتمام به ، ونشره جميعه . بل يجب ان يدرس مجهود ذلك الرائد . وان طوى الزمان حياته مثلما طوى حياة التجانى، الا ان تراث كل منهما لا يزال معلما فى تاريخنا .

وأثنى التجانى على مجهودات الاستاذ « سليمان كشه » لما اصدر مجلة « مرآة السودان » عام ١٩٣٤ ، بقصيدة عنوانها « تحية »، وقد جاء فيها :

أكبرت فيك النبل غــير مـــوارب
ابدا وكنــت أخذت من اسبابــــه

قـــــدرت فيــك سعى القوى يمـــو
ج بالدنيـــا ويأخذهــا لدرك طلابه

يرفض مـوار اليـراع بكفـه
ويفيض زخار النهـى برحابـه

واليراع الذى افتخر به التجانى ، أصدر كتاب « سوق الذكريات ـ ١٩٦٣ » وكتاب وثبة السودان الاولى » عام ١٩٦٦ والخرطوم والمهدية (١٩٦٦) واثنى شاعرنا على مجهود الشاعر ابراهيم العبادى ، لما اصدر مسرحيته الشعبية « عائشة بين صديقين » ، كما قرظ رواية « فتاة المستقبل » لمؤلفها الاستاذ خالد احمد سليمان ، وافصح عن اعجابه بالشعر الشعبى ، الذى يعتمد على اللغة السهلة التى يتداولها الناس او الدوبيت .

وفضلا عن كل ذلك ، فقد كان التجانى يساهم فى نشر الثقافة بمحاضراته التى كان يلقيها فى النوادى الثقافية والرياضية ، كما كان يتردد على نادى الخريجين بامدرمان، فى يومى المحاضرات والمناظرات . وكان النادى يزخر بالنشاط الادبى والسياسى وقتئذ .

ولا تجد للتجانى قصائد سياسية ، ولكن نجد له ابياتا وطنية تتناثر هنا وهناك فى ديوانه ، وذلك يرجع بطبيعة الحال ، الى المناخ السياسى المظلم الذى كان سائـدا فى عصره ،اذ كان الكاتب والشاعر يكتب وسيف الارهاب مسلطا على رقبته ورقاب اهله وعشيرته . وما كان أيسر للحاكم الانجليزى من الامر بفضل العامل من عمله او الموظف من وظيفته . ان اشتم من كتابته روحا وطنية ظاهرة ، بل كان من السهل تعطيل الصحيفة أو المجلة التى تنشر للشاعر او الناثر الثائر ، تعطيلا اداريا ، دون اللجوء الى القضاء .

وللتجانى قصيدة عنوانها « اليقظة » . يمكن تفسيرها تفسيرا

رمزيا ، على انها دعوة للقضاء على الجهل والبطش والاستعمار ، وفيها يقول :

فى الليل عمق وفى الدجى نفق	لو صب فيه الزمان لابتلعه
لو مزق الرعد مسمعى أحد	فى عمق ذاك الدجى لما سمعه
مرت عليه الحياة تعبره	فى زورق اعرف الذى صنعه
حتى اذا ما استقل آذيه	طغى عليه العباب فابتلعه
وكان دهر ونكبت حقب	و(الجهل) يفرى على ثرى سبعه
يرد سهم الضياء دارعه	ويحتمى بالكهوف ان تزعه
حتى افاض الضياء وانفجرت	عين من النور شردت بدعه
فاليوم لا مركب الضحى عسر	ولا مراقى السماء ممتنعه
ضوء من العلم فى مدارجه	نسعى وللعلم فى الوجود سعه

ورغم الرمزية التى تشيع فى هذه القصيدة ، بل رغم الغموض الذى اعتور بعض ابياتها ، الا انه من الواضح ان ليس هناك عام ١٩٣٦ من كانت له مصلحة فى فرض الجهل واستمراره فى السودان غير الاستعمار ، اذ انه هو الذى حارب التعليم ،فلم تكن المدارس تفتح الا بعد اتخاذ اجراءات طويلة مملة ، وفى المدن الكبرى وحدها .

ولقد طرب التجانى ليقظة شعبه واهتمامه بالتعليم ، ذلك انه كان يرى الثقافة عاملا من عوامل الرقى والنهضة والتقدم وتطور وازدهار الوجدان الاجتماعى لدى كل مواطن .

الفصل السادس

الحرمان فى شعره

كان التجانى فقيرا .

وعاش كملايين المواطنين عيشة ضنك ، لا يجد فيها غير الكفاف واشباع الضرورات ، او ان شئت ، فقل بعض الضرورات .

والده يوسف بشير صانع وبائع احذية بسوق امدرمان ، كان ولا يزال يكسب عيشه وعائلته بشق الانفس .

ولذلك ، لم يكن من المستغرب ، ان يلتحق التجانى بالمعهد العلمى ، اذ الدراسة فيه دون مقابل ، فقد كان ابناء الطبقة الفنية والوسطى يلتحقون عادة بالمدارس الابتدائية ، سواء الحكومية منها او الاهلية .

وكان التجانى يقيم مع والده فى منزل من الطين ، مكون من عدة غرف ، كأكثر بيوت امدرمان ، ولا تزال اسرته مقيمة بنفس المنزل دون ان تصيبه يد التغيير او التعمير .

ولم يكن بمنزل والده مواسير للمياه ، ولعلها لم تتصل بمنزله الا بعد ان عم انتشارها عام ١٩٣٢ تقريبا ، وكذلك لم يكن به تيار للنور الكهربائى ، فكان لكى يواصل التجانى قراءته ليلا ، يجلس وضوء لمبة صغيرة بجانبه ، كانت تشترى بمليم واحد .

وقيل ، بانه لطالما واصل القراءة ، حتى يفرغ غاز اللمبة ، ليترك دخانها القاتم أثرا على جبهته .

من قرأ تحت ضوء المسرجة او اللمبة او الفانوس ، لا يمكن

ان ينسى ما كان يعانيه من ظلام وضيق وارهاق واجهاد للعينين وللاعصاب ،ولا بد ان يدرك مدى مالاقاه التجانى من ذلك .

واستشعر التجانى ، وهو بالمعهد ، بان عائلته فى حاجة الى معونته المالية ، ولذلك ، التحق بالجريدة التجارية عام ١٩٣١ ليعمل مصححا بها ، تلك التى اصدرها المرحوم سليمان داود منديل عام ١٩٢٨ ، والتى اضحت تسمى « ملتقى النهرين » منذ صدور العدد رقم ١٦٠ بتاريخ ٣٠ ـ ٣ ـ ١٩٣١

ولما فصل من المعهد ، وكان ذلك عام ١٩٣٣ على ما سبق ان عرفنا ، لم ير بدا من التحاقه بعمل يرتزق منه ، ويخيل الى ان التجانى قد قاسى فى تلك الفترة مرارة الحرمان من الثقافة ، وهو حرمان يكاد يماثل قسوة الحرمان من العمل الذى يرغب فيه، ولذلك حاول اغراء والده ليسمح له بالسفر الى مصر ، لاكمال تعليمه بالازهر ، ولما رفض والده طلبه ، اعد عدته للسفر ، وذهب الى محطة السكة الحديد بالخرطوم ، ولكن ترامى خبر سفره لوالده ، فاسرع اليه ، وأجبره على العودة معه ، فعاد ادراجه كليما حسيرا ، ولذلك استشعر التجانى بألم عميق دفين، عبر عنه فى شعر يقطر اسى وتمردا اذ يقول فى قصيدته «امل»:

أمل ميت على النفس الحد	ت له من كلاءة الله قبرا
زهقت روحه وفاضت شعاعا	قبلما ينفد الطفولة عمرا
كنت احيا على ندى منه يسا	قط بردا على يدى وعطرا
فى ظلال مطلولة افرغ الشد	عر عليها من الهناءة فجرا
ثم أودى يا ويحه ضاقت الدنيـ	ـا به جهدها احتمالا وصبرا
بعدما نضر الحياة بعيد	ى مضى جاهدا وأعقب أسرا
ان لقينا منها على البعد ريا	ما لقينا منها شواطىء خضرا

وعلى هذا ، لم يفتقد التجانى وسائل الراحة والرفاهية فى المنزل فحسب ، بل افتقد حقه فى مواصلة التعليم فى بلده ، فضلا عن خيبته فى السفر الى مصر للالتحاق بالازهر ، كما افتقد المال الذى يرفه به عن نفسه أو يلهو به مع اترابه ، ومن ثمة مر عليه يومه كأمسه ، وليله كنهاره ، وكان من الطبيعى ، والحال هذه ، ان يفكر التجانى فى نفسه ، فلا يزيده التفكير الا اضطرابا ، ويفكر فيما حوله ، فلا يجد الا خداعا ورياء ، وغربة وضياعا ، اذ انه لم يجد من يقدم له من اهله او اقاربه واصدقائه او معارفه او مواطنيه ، المعونة الصادقة ، وكيف يقدم له الناس وقتئذ معونة ، والفرد حينئذ لا يعيش الا لنفسه ، وليس ثمة تفكير بان تقدم الحكومة معونة أو خدمة لاحد ، اذ كان الاستعمار جاثما على صدر البلاد ليخنقها ويستغلها ويمتص مواردها ، وكانت الازمة المالية قد أنشبت أظافرها بخناق البلاد منذ عام ١٩٢٩ حتى عام ١٩٣٣ .

ولم يكن التجانى وحده ، هو الذى ضاق بالازمة المالية ، والقيود الاستعمارية ، بل ان كثيرا من ادباء الاربعينيات ضاقوا بالفقر ضيقا شديدا ، ولعنوا الحرمان لعنات تمثلت شعرا ونثرا سواء بالنسبة لمن التحقوا بالوظائف الحكومية او من عملوا بالصحافة .

وصور الاديب محمد احمد محجوب الذى كان من طليعة الرواد الذين نشروا روائع ادبهم فى مجلات النهضة والفجر ومرآة السودان . الحياة فى نظر المواطن السودانى . فى مقال عنوانه « الحياة كما اجدها » ، نشر بمجلة « النهضة السودانية ، فى العدد التاسع (٢٩ـ١١ـ ١٩٣١) . تصويرا يكاد يعبر تعبيرا صادقا عن احاسيس ومشاعر ابناء جيله . اذ يقول :

(الحياة تختلف حسب نظرات الناس اليها وشعورهم نحوها

واحساسهم بها ، ولذا ليس بالغريب ان نرى هذا الاختلاف بين الناس وفي المشارب والامزجة .

فهذا يجد لذته في المرح واللهو وذاك يجدها في التعب . وثالث فى القوة ، ورابع فى الدرس واستقصاء الحقائق ، وخامس فى تعقب الناس وفضح اسرارهم وهكذا الى آخر ضروب الحياة المختلفة .

وهذا الاختلاف ناشىء من البيئات التى يعيش فيها الافراد والجو الذى يحيط بهم واساليب الحياة التى يجدون عليها ذويهم، وطبيعة البلاد التى يسكنونها وظروفها الماضية والحاضرة التى تتمخض عن المستقبل بشروره وخيراته التى لا يعرف كنهها .

ولكن لهذا الاختلاف نقطة اتفاق عامة تلتقى عندها كل السبل!

والناس لا يتفقون الا فى السخط على الحياة والملال منها فهم يجدونها مهما اختلفت الوانها عبئا ثقيلا لا يطيقونه ، ولقمة مريرة لا يسيغونها وبودهم لو يظفر الواحد منهم بحظ اخيه الذى بدوره يطمع فى حظ ذلك الساخط على حظه ...

انى لاجد من الحياة غبنا يحز فى نفسى ويؤلمنى كثيرا وذلك لانى اراني متخلفا عن كثير من المحظوظين الذين تهبهم الحياة بغير حساب وتفتح لهم خزائنها فينالون من الثراء ما يجعلهم ناعمى البال يلبسون من الثياب افخرها ويأكلون ويشربون ما لذ وطاب من انواع المآكل والمشارب وينهبون الارض بسياراتهم الفخمة ويمرون بجانبى وانا فى شبه غيبوبة عن هذا العالم بآلامى التى أقاسيها وآمالى التى اعلل النفس بها واخادعها بان الايام ستنفذها وانا عليم بكذب هذه الامانى التى ينسجها خيالى ، وتقبلها نفسى المسكينة المحزونة ...

وانتهى الى النتيجة الطبيعية الا وهى كلنا يبغي الحياة لنفسه

والحياة لا تعبأ بالجميع) .

أجل لم يكن التجانى هو وحده الذى ضاق بالفقر ، بل ان فصله من المعهد ، قذف به الى معترك الحياة ، دون مؤهل علمى أو فنى ، ولم يكن يجيد عملا يدويا يرتزق منه ، ولذلك لا بدلنا ،والحال هذه ، ان نتساءل : ما العمل الذى التحق به التجانى ؟

وكم كان يتقاضى فى الاسبوع اكبر شعراء السودان قاطبة ؟

عرفنا ان التجاني قد التحق بالعمل في الجريدة التجارية ، وهو لم يزل طالبا ، وذلك منذ عام ١٩٣١ ، على ادنى تقدير ، وظل يعمل مصححا بها .

ويخيل الى انه لم يكن يتقاضى اول الامر الا اجرا رمزيا ، على جهده فى التصحيح ، وانه لما ظل يعمل بملتقى النهرين حتى عام ١٩٣٣ ، لربما تقاضى اجرا أسبوعيا لا يجاوز خمسين قرشا .

وكان العمل بالجريدة التجارية وملتقى النهرين يوجب عليه الحضور الى الخرطوم ، فى الصباح الباكر ، على الا يعود الى منزله الا بعد الثالثة ظهرا .

ويبدو ان التجانى اكتسب شهرة فى مضمار تصحيح الصحف ، لذلك فقد كلفه المؤرخ محمد عبد الرحيم ، بتصحيح مسودة الجزء الاول من كتابه « نفثات اليراع » ، الذى تم طبعه فى ١ـ٦ـ١٩٣٣ ، ولكن المؤلف لم يستلم من المطبعة نسخ الكتاب ، لسبب أو آخر ، وان قام بعد ذلك باصداره عام ١٩٣٦ بعد ان نقحه وزاد عليه ما شاء .

ولم يستمر التجانى فى عمله بملتقى النهرين ، لانه التحق بالعمل فى شركة سنجر (فرع امدرمان) ، وكان يتقاضى اجرا اسبوعيا قدره اربعين قرشا .

وكان عمله هو تحصيل قيمة الماكينات من المشترين .

ورغم انك تجد اسم التجانى يوسف بشير فى سجلات الشركة. الا انك لا تعثر على ملف خدمته ، فقد عبثت به ايدى الضياع. ولكن موظفى الشركة يرجحون انه عمل بها عام ١٩٣٣ لمدة لا تجاوز العام .

ولم استطع التحرى عما كان يقوم بهالتجانى خلال عام ١٩٣٤. ولذلك . يخيل الى ان التجانى . قد عانى من البطالة المباشرة تارة. والمقنعة تارة اخرى ، ولربما لجأ مرة اخرى الى العمل بملتقى النهرين ، ولم يكن حاله بها أسعد من حاله الاولى .

ثم التحق التجانى بجريدة النيل عام ١٩٣٥ فى وظيفة مصحح. باجر اسبوعي لا يتجاوز خمسين قرشا . ولكنه لم يستمر كثيرا في وظيفته الاخيرة .

ويخيل الى ان البطالة قد ظللته بجناحيها مرة اخرى . لفترة غير قصيرة ، حتى التحق فى منتصف سبتمبر ١٩٣٦ بمجلة امدرمان . التى اصدرها المؤرخ محمد عبد الرحيم . وعين التجانى محررا بها ، ولكن لم يقم التجانى الا بتحرير ستة اعداد فحسب. اذ اقاله صاحبها من وظيفته اعتبارا من ١٣ـ١٢ـ١٩٣٦ ، ولعل مما حز فى نفس شاعرنا ان يكتب عنه صاحب الجريدة فى العدد السابع ما يلى :

(مدير هذه المجلة يعلن مع الاسف اقالة حضرات التجاني افندي يوسف بشير المحرر بها و ... الخ) . وهو الذي كتب عنه في صدر العدد الاول يصفه بانه شاعر وكاتب طائر الصيت !

ويبدو لي ان اقالته الاخيرة من المجلة قد اثرت في نفسه مثلما أثر في نفسه فصله من المعهد . الامر الذي جعله يضيق ذرعا بالحياة ، فى الواقع من الامر ، واذا اضفنا الى ذلك تاثير المرض عليه . ادركنا كم تألم شاعرنا المناضل وكم كافح ؟!

وذلك كله ، كان من الطبيعى ان استشعر التجانى بعالم من الفوارق بينه ، كرجل فقير ، وبين ابناء الطبقة الموسرة . وان لم يذكر لنا صراحة اسم شخص معين أو أسرة خاصة أو بيت من البيوتات الكبيرة .

وذلك الشعور كان ــ ولا يزال ــ يمثل مشاعر الملايين الكادحين من المواطنين بل انه عبر عما اعتلج ــ ولا يزال يعتلج ــ فى صدور العمال والمزارعين والمهنيين .

انه شعور عدم الرضاء بالوضع الاقتصادى .

انه ارادة التغيير ، اى تغيير المجتمع الى افضل .

انه الامل فى سبيل تحقيق عالم ، لا يحتاج فيه الانسان . لكى يعمل طوال اليوم ، منذ بزوغ الشمس حتى مغيبها ، لمجرد ان يضمن السكن والاكل والملبس ، بل يكفيه العمل أقصر الوقت فحسب . لكي يمارس في فراغه هواياته ويستمتع بحياته فكريا وروحيا وثقافيا . انه الامل فى القضاء على استغلال الانسان للانسان . ولعل قصيدته « دنيا الفقير » ، تدل على انه لم يرغب فى رسم لوحة لفقره وحده ، بل لفقر الملايين ، اذ ان واقعه الاقتصادى ، كان جزءا لا يتجزأ من واقع المجتمع المتخلف ، الذى يفتقد فيه الانسان الضرورات ، ويشبع بعض احتياجاته الضرورية بشق الانفس ، ولا يجد ضمانا له فى ممارسة حياته ممارسة عادية او طبيعية . اذ يقول فيها :

تعالى معى زهرات الخريف	الى الكوخ أفلت منه الربيع
تعالى نعطر ثياب الفقير	ونمسح مآسى غبر الربوع
بنفسي من هان حتى توا	ضع فى نفسه كل معنى رفيع
مشى خاشع الطرف رث الثيا	ب كئيبا كثير مرائى الخنوع

تأكله حسرة في الضمير	وتسحقه خيبة في الضلوع
ماذا يقول : الهى الكفاف	ويردفها بالبصير السميع
ويمسح في وجهه راحتيه	ويفضى تقى او رضى او خشوع
فيا آهة ملء دنيا الفقير	ويا أنة ملء دنيا الوجيع
لأنت لدى الله اسمى وانبل	في الأرض من بسمات الخليع

ويصرخ التجانى من الفقر فى قصيدة « ثورة » صرخة قوية ثائرة ، تعبر عن عدم رضائه بوضعه الاقتصادى وعدم رضائه ايضا بواقع الاقتصاد فى بلاده . اذ يقول :

انها ثورة الحياة فمن للكون	يحميه من قذائف رعن
لم اجد كالشباب يبسا مرا	عيه ولا كالصبا اغر لعيني
يا بلادى وانت اضيق من رز	ق مجالا ودون اخرات اذني
حسب قلبى من الاسى ماالاقى	ملء جنبى من كلال وأين
وبحسبي من حاجة عوز يد	فع نفسى الى فراق وبين

ولا نبالغ اذا قلنا ان التجانى قد ضاق بفقره . وسوء حاله ، حين كان يبلغ به اليأس ، فى بعض الاحيان ، مبلغا عظيما . كاد يدفعه الى التشاؤم العميق ، والاحساس بالضياع فى الحياة .

وقصيدته فى رثاء ابن اخته « محمد الامين »، تنطوى على بعض ابيات تؤيد ذلك . وخاصة قوله :

قرأ الزمان عليك معنى ساميا
ورأى سرائر منك مثل سرائرى

فرماك فى العهد البرىء بما رمى
حظى به ودهى جسيم خواطرى

لوددت انـــي في الطفولـة مـــائت
لو كنت اسمـــع بالشباب العاثـر

ويفخر التجاني في بعض قصائده . مثل « دنياى » و« هوى وفقر » « وقلب من ذهب » و« يا صاحبى خلهم » . بأنه قد سما عن العالم المادى ، وانشغل بالجانب الروحى منه ، بل قد زهد فى الثراء او الجاه او المال ، وأنه رأى سعادته فى الفقر او القناعة وعدم الجري وراء الملذات الحسية . ولكنا نحسب ان ذلك لم يعد العزاء لنفسه بل العزاء للمحرومين امثاله . اذ تنطوي مقارنته بين دنياه ودنيا الثرى على احساس شديد مرير بفقره ، وخاصة بالنسبة لمن عيره من ابناء المسالمة بفقره ، اذ يقول فى قصيدته « قلب من ذهب » :

لك قلبى من النضار وفى صد ـرك جناته ودنيا قصـــوره
وبجنبى خافق مـــن تـراب ليس من تبره ولا من صخوره
يطفح الوجد والجمال بدنيـا ه ويغلى الحماس فى تاموره
لى من الفجر اربعة فوق ماتطلب ه انـــت من طوافح نـــوره
لى دنيا الفنون والدجى والا: هام من صدقه ومن مسحوره
اينا لو عدلــت يكتنــز العــا لم فى صدره وفى تفكـــيره
اينا يزحم الوجود جناحيه وتمـ شى الحياة بين ضمـــيره ؟

ويبدو ان بعض الناس قد عاب عليه اهتمامه الشديد بالشعر ، واستغراقه فى التفكير ، فانفجر ساخطا يقول لهم فى قصيدته « دنياى » :

ما بى ثراؤك مـــن ذخـر ولا مـــال
فاستبق دنياك حسبى كنز آمالـــى

ما بى ان شقيت وما بى ان نعمت وما
بالقلب زهو الغنى أو رقة الحال
دنياى وهى من الدنيا على نفس
أثرى من التبر أو أسمى من المال
وهبت للناس من دنيا مطامعهم
ما عندها لى من نعمى واقبال
فليتركوا لى احلامى وما نسجت حو
لى من الضنك ان لم يرضهم حالى
وهبتهم من لذاذاتى وصمت فلم
اطعم لذيذا ولم أفطر على حال
ولا غنيت وما أبغى ولا رغبت
دنياى فى وفرة منها واقلال
وعشت أنعم فى عدمى ويسعدنى
اني تخففت من امري وانثالي
اولئك الناس لم افرق حقائقهم
فما لهم بى لا اهلى ولا آلى
جانبت باطل ايامى وزهدنى
فيها خوادع ما يطفو من الآل

والفقير الجائع المحروم كان يفكر فى لقمة العيش ، قبل ان يفكر فى المباهج الاخرى للحياة ، ولكنه كان محروما من اشباع الجنس أيضا ، فتلاقى حرمان المعدة مع حرمان الشهوة ، فضاق شاعرنا بحرمانه ، ولكنه حاول ان يفلسف واقعه فى قصيدته « هوى وفقر » ، التى يقول فيها :

سما بالهوى فقرى ومن لك با! (م)
هوى سماوى معنى كله أبدا نبل

هوى ساوقته النفس والشعر فانته
ى الى القلب واستولى متاوده العقل

وهبت له نعمى الحياة وزدته
ذخائر اسرار المفاتن من قبل

وهبت له الدنيا فاثرى ولم أهب
له التبر منها ان مشرعها ضحل

عجبت لها كم ذا اروح واغتدى
على ظمأ يروى سواى ويبتل

وما بى ما أفلت منها وانما
تخيرت من دنيا الصبابة ما يحلو

غفرت لها انى شقيت وانها
يصح بها مرضى النفوس واعتل

ولي في كنوز الروح سلوى وغنيـ (م)
ـة بحسبى لا خلف لديها ولا مطل

وحسبي لا اثريت منها وانني
ليصرف نفسى عن نضاركم شغل

ولا يرضى التجانى عن نفسه ، لانه لم يرض عن واقعه المادى، ولذلك تستشعر مرارة الاسى الحزين فى قوله فى قصيدته « نفسى » :

هي قسطى من السماء فما اضيـ (م)
ـع فى العالم الترابى قسطى

ولكن رغم فقر الشاعر ، فانه كان عفا أبى النفس ، لا يرضى

عن الذلة أو الخنوع او التذلل ، بل لم يطلب احسانا من احد . كما كان عزوفا عن المدح بقصد الرد .

وقد قال فى قصيدته « وحى المحامد » ، بمناسبة عودة الشيخ الازهرى مفتى الديار السودانية سابقا :

ما الى الرفد قد مدحت وما مثل قناتى تلين من لمعانه
عمر مولاى ما اطباني سحر المال يوما لرغبة فى اختزانه
وانا المرء من عرفت اباء وعزوفا عن ذله وهوانه

وعلى هذا ، لعلنا لا نبالغ اذا قلنا ان شعر التجانى كان مرآة لمجتمعه ، مرآة لفقره بل فقرنا .

والحق ان اغلب النقاد يجمعون على هذا الرأى .

يقول الاستاذ عبدالله الشيخ البشير فى بحثه « ثلاث قضايا في شعر التجاني » (دراسات في شعر التجاني ـ ص ٦٩) : (عاش التجاني فقيرا ما في ذلك شك كغالبية الشعب السوداني حينذاك وليس فى هذا ما يعيب وقد كان لهذا الفقر أثر واضح فى شعره فهو كما سترى فى بعض قصائده يضيق تارة بهذا الفقر وتارة يفلسفه ويفتخر به ويشيد بعظمته ويشن حملات عنيفة على الثراء والمثرين والناقد يلاحظ ان القصائد التى يضيق به فيها بل لا تكاد تجد قصيدة يتبرم بها من الفقر صراحة الا قصيدة « ثورة » وابيات قليلة موزعة هنا وهناك)

ولقد عقب الناقد صلاح احمد ابراهيم على قصيدة التجانى « دنيا الفقير » ، التي سبق ذكرها ، تعقيبا عميقا بسيطا . اذ قال فى بحثه « الجرح والقوس »

(دراسات في شعر التجاني ـ ص ٤٤) :

(وهل هذه الا صورة الفقير السوداني او قل صورة السوداني، أنا وانت وجارى وجارك ...)

واستطرد الناقد يقول :

(اذن عليه ان يدبر عيشه في الحياة وان يضرب فى فجاجها طلبا للرزق فماذا لقى ؟ خيبة اخرى ... فبلاده اضيق من رزقه مجالا ودون اخرات اذنه اي ثقوبها ، حتى ليدفعه العوز الى طلب الفراق والبين ولعله يقصد الموت ـ وهذا انتحار فى الخيال . ولم يكن له استعداد للكفاح ومغالبة متطلبات الحياة ..)

ولم يلتفت كل من الدكتور عبد المجيد عابدين والاستاذ عز الدين الامين عن أثر الفقر على شعر التجانى بل على الشعر السودانى عموما .

والحق انه اضحى من العسير على الناقد من النصف الاخير من القرن العشرين، مهما كان اتجاهه الادبى ، تجاهل العامل الاقتصادى واثره على الاديب .

وعلى هذا ، فانه رغم اتفاقنا مع النقاد على أثر الفقر على شعر التجانى ، الا اننا نؤكد دائما ان حرمان التجانى اى فقره ، كان هو المصدر الاول لقلقه ، وان الطبيعة التى احاطت به ، هى مصدر من مصادر قلقه فى الاعتبار الثانى ، وان الثقافة التى لقحت تفكيره ، ساهمت الى حد كبير فى استعمال نيران قلقه .

وقد يكون لكل من الاسباب المذكورة اثر مماثل للآخر ،ولكن وان كنت اعتقد فى تشابك الاسباب وتعقيدها ، الا اننى ارجح العامل الاقتصادى كسبب من اسباب قلق التجانى ، مثل ملايين السكان فى السودان . وفى غيره من البلدان المتخلفة .

وبعبارة اخرى ، فان الفقر هو مفتاح شعر التجانى ،ذلك لانه

هو سبب قلقه ، الذى يستظهره فى اكثر قصائده ، وان ذلك القلق قد لازمه حتى فى شعر الطبيعة والحب ، وانه هو الذى جعله يتردد بين الايمان بالحياة والشك فيها ، وبين الايمان بالله والشك فيما وراء الطبيعة ، وهو موضوع الفصل القادم .

الفصل السابع

بين الايمان والشك

يعيش الطفل حتى السابعة من عمره تقريبا . وهو لا يكاد يأبه الا باشباع حاجاته الضرورية من مأكل وملبس ومشرب ، يصرخ اذا عضه الجوع ، ويبكي ان نشف ريقه . ويزمجر اذا اخذت منه لعبته . او حرمته من السير في طريق معين .

وعلى هذا ، يمكن ان يقال انه يسير بغرائزه ، وما يكتسب من عادات قليلة نتيجة التربية التى يحظى بها من والديه او اهله او جيرانه .

وينمو الطفل ما بين السابعة والرابعة عشر ، وهو يكاد يقلد من هم اكبر منه سنا ، حتى اذا ادرك البلوغ في الرابعة عشرة او السادسة عشرة تقريبا ، تغيرت نظرته بعض الشيء الى الدنيا ، واحس ان لشخصيته وزنا يجب أن يظهره ، ويؤكده للمجتمع الذى يعيش فيه .

وفى عهد المراهقة يحس المراهق بأنه فى حاجة الى غذاء جسمه وشهواته وغرائزه ، والى اشباع عواطفه ونفسه وروحه .

ولذلك ، كان من الطبيعى ان يدور بذهن التجانى ما يدور بذهن المراهق من اسئلة تتعلق بالوجود وتفسيره بل مدى ارادة الفرد فى تغييره .

وتردد التجانى بين الشك واليقين سببه الرئيسى هو الحرمان . الآخر .

ونحن لانمل من تكرار القول ، بان سبب حيرة التجانى ، كان الفقر ، فى الاعتبار الاول ، ذلك لاننا نعتقد ان الشاعرالاصيل، الذى يعتبر شعره مرآة لمجتمعه ، يجب ان يعبر عما يقاسى شعبه من فقر وجهل ومرض ، فى جميع مراحل حياته ، ومهما بلغ به العمر ، ما دام مستوى المعيشة فى بلادنا، لا يزال منخفضا، وما دمنا نشكو حتى الآن من ذلك الثالوث البغيض ، ذلك لان شك التجانى لم يكن شكا فى الموت او فيما بعد الموت او فيما وراء الطبيعة فحسب ، بل كان شكا فى الحياة ذاتها ، وضيقا بمشكلاتها ومآسيها ، وحنقا من ملالها وتكرارها وسخرية بالتفاهات اليومية ، وامتعاضا من دوران الارض حول الشمس، دون ان تأتى بجديد عليه او على بنى وطنه ، وقلقا مما يخبىء له الغد من مفاجئات ، والليالى من الزمان حبالى ، كما يقولون .

ولذلك ، لم يكن شك التجاني أمرا ذاتيا ، بل له ظروفه الموضوعية . وليس هو ظاهرة عارضة بل ظاهرة عامة .

ويقابل أو يماثل مشكلة الحياة تماما ، مشكلة الموت أيضا ، وان شئت فقل مشكلة الصراع بين الحياة والموت . وبين الخلود والفناء .

ولا شك انها مشكلة أقلقت بال الانسان ، من كل مجتمع ، وكل عصر ، بل لا تزال تقلق وتشغل عقله في البلدان النامية – مثل بلادنا – بأكثر مما تقلقه في البلاد المتقدمة في الحضارة ، لاسباب كثيرة منها ، ان الانسان في البلد المتخلف او النامي ، كثير الفراغ ، الامر الذي يسمح له بالتفكير في مشكلة الموت مرارا وتكرارا ، وانه معرض للاصابة بالامراض ، نتيجة سوء التغذية وعدم اتخاذه اجراءات الوقاية اللازمة من الامراض المعدية او الفتاكة ،

وذلك فضلا عن بعض العادات والتقاليد . التي تجعل من تكرار الزيارة لبيوت المآتم أو القبور . واجبا اجتماعيا . الأمر الذي يساعد على انشغال الذهن بقضية الموت كاحدى القضايا الكبرى في حياة الانسان .

واذا اضفنا الى ذلك . ما عرفنا من ضعف صحة التجاني وارهاقه في العمل . وقرب منزله من المقابر التي تقع في الخلاء المجاور . حيث يتردد عليها الاحداث بمناسبة وغير مناسبة . وحيث كان ولا يزال يروق لكثير من أبناء الاحياء المجاورة . لعب الكرة او الصيد أو « التشريك » للطير . فاننا نستطيع القول . بان تفكير التجاني في الموت . كان أمرا طبيعيا . يتوافق مع البيئة والظروف المحيطة به . من ناحية . ويتوافق مع ما تلقاه في المعهد من دروس . وما قرأه في الكتب غير المقررة من فلسفة . من ناحية اخرى .

ولئن قيل ان التجاني كان مفرطا في حساسيته بالفقر والملال من الحياة . فاننا ننكر ذلك . اذ لم يكن شاعرنا يتفرد بذلك . بل كانت الشكوك ــ ولا تزال ــ عامة بين الادباء والشعراء . وغيرهم من المواطنين .

ومن يستقرىء المجلات التى صدرت في العقدين الثالث والرابع من هذا القرن . لا يصعب عليه استظهار مئات الادلة من المقالات والقصائد .

ولعله يكفي ــ لضيق المقام ــ ان نذكر ما جاء في مقال « حياة السآمة والملل وأثرها في تأخير الفنون والآداب » . المنشور في العدد ١٩ بمجلة «النهضة السودانية». الصادر بتاريخ٢٧ــ٢ــ١٩٣٢ . بقلم الاستاذ محمد أحمد محجوب :

(ليس بين شبابنا المثقف المستنير من لا يشعر بفداحة الحياة

وثقلها ويجد انقباضا في نفسه وكراهة لعيشه واصحابه الذين يجتمع بهم ويود لو تغيرت هذه الحال وتبدلت بأحسن منها وليس بينهم من لا يمس هذا التكرار الممل وهذا القبح الكريه ويود لو تنوعت صور الحياة وأخذت من الاشكال والقوالب غير هذا المأخذ ..)

وان نقتطف أيضا بعض ما جاء في مقال آخر بمجلة النهضة (عدد ٢٤ ـ ١٣ـ٢ـ١٩٣٢) ، بقلم « المأمون » . الذي وصف فيه الكاتب (حسن المأمون) . حياة الملال في غير الخرطوم ، فكتب يخاطب صديقا له :

(لا بأس من جعلك على حقيقة تامة من سيرنا اليوم في حياتنا البائسة المكررة .

نذهب الى المكتب في الساعة السادسة صباحا و نحن عندي أشبه « ببائعات اللبن » ، ثم نعود الى المنزل في الثامنة لتناول الافطار ، ثم نرجع كذلك في التاسعة فنعود الى المنزل عند الساعة الواحدة بعد الظهر ، ثم نعود تلك الكرة في الثالثة فنرجع للمرة الاخيرة في الخامسة ...

هكذا الحياة عندنا مملة الى حد بعيد .

حياة سأمة وتكرار .

فالواحد منا لا يدرى كيف يسير وما يكون دليله اثناء هذا السير .

فنحن اشبه على الاقل بالانسان الاصطناعى تحركه بعض الازرار الكهربائية !!

وعلى الاكثر فان جل زمننا يضيع بين المنزل والمكتب .

ولا نجيد معرفة سواهما فنحن أشبه في نظري « بحمير العياشة »

حيث تسرع الى كلا المكانين ــ الحانوت والمنزل ولا تقوى في سيرها على سواهما .)

واذا أخذنا في الاعتبار ، ان الاستعمار الانجليزي كان قد أمسك بخناق البلاد وحده ، منذ ١٩٢٤ ، بعد دحر الثورة، وطرد الجيش المصري ، وان بعض المثقفين في السودان، كبعض المثقفين في مصر، قد استكانوا للوظائف التي حظوا بها ، كما تهاون بعض منهم مع الاستعمار ، وتسربت روح الانتهازية والمنفعة غير المشروعة الى ضعاف النفوس من المتعلمين . حتى ظهرت آثار ذلك جليا . في معاهدة ١٩٣٦ ، التي لم تكن حلا للقضية الوطنية في السودان أو مصر .

واذا أخذنا في الاعتبار أيضا ان التفكير العلمي بدأ يبزغ في الافق السوداني بين المتعلمين من أبناء الطبقة الفقيرة، وان الوعي الوطني شرع يتسرب الى معظم المواطنين ، فاننا نرى ان الاوضاع الاقتصادية والسياسية ، والحال هذه ، كانت مصدرا من مصادر عدم وضوح الرؤية في ذهن التجاني . من ناحية . كما كانت مصدرا لقلقه وشكه ، من ناحية اخرى .

بل كانت تلك الظروف الموضوعية مصدرا لقلق كثير من المثقفين ، ولذلك وان يتضح تمردهم وثورتهم على الاوضاع الاقتصادية والسياسية في النثر ، فقد كان الشعر مجالا واضحا للتعبير عن رفضهم للمجتمع الذي عاشوا فيه .

ولنضرب لذلك مثلا لشاعرين هما توفيق احمد البكري ، الذي كان من أوائل المثقفين الذين هاجروا الى مصر لطلب المزيد من العلم ، ولكن القلق يطارده وهو هناك ــ فترة من الزمن ــ على ما يبين من هذه القصيدة الحزينة التي نشرها في مجلة ابولو في يناير ١٩٣٣ :

قد بكينا على هوى وأمـــان　　عالجتهـا الاقدار نشرا وطيا
وآرى عالق الرجاء بكفـــي　　هباء لم أنل منـــه شيـــا
آه لو تغسل الدموع جراحا　　آه لو ينفع البكـــاء شجيا
لفها الدهـــر في حنادس يأس　　لا أرى للمنى بصيصا مضيـا
وامد الكفيف أحســب اني　　واجد في الظلام منها خبيـــا
واخال الاشباح تجري أمامي　　صورا في مناي خلقا زريـــا
ظلمات يحجبن وهم خيالـــي　　ان يرى بينها طريقـا سويا
اين.. لا أين- لليقين سبيل؟　　قد ضللت الصواب شكا ورعيا
وهواي الطهور لم يعد نفسي　　من خيبـة الصدود فتيـــا
والاماكن الحسان كالنغم الحلـــو اذا ضاع في الرياح ذريـا
فاملئي كأسك الدهاق وهاتيهـــا اروى بها فـؤادا صديـا
واتركي في قرارهـــا قبلات　　خالـد بردهن في شفتيـــا
فاذا الموت ضمنـــي في فناء　　رحمة ما لقيت روحا وريـا
كلما رمت للهنـــاء شرابـــا　　سقطت كأس نشوتي في يديا

والشاعر الثاني هو المرحوم الهادي عثمان العرابي ، الذي مر بنا ذكره كثيرا . وله قصائد كثيرة لا تقل روعة عن شعـــر التجاني ، كما تتفق معه في كونها علاجا لمشاكل الحياة وما بعد الموت ، يتضح منها تردده بين الشك واليقين ، كما تدل على ذلك هذه الابيات :

انـــا كافـــر باللــــه لكـــ　　ـــن مؤمـــن بكتابـــه
أنـــا مؤمن باللـــه لكـــ　　ـــن كافـــر بجنابـــه
هـــذه كلمـــات　　فـــذ نابـــه
الكفـــر والايمـــان يصط　　رعـــان بـــين ثيابـــه

والقلق الذي ساور هؤلاء الشعراء والكتاب في السودان ، لامس قلوب كثير من شعراء العالم العربي مثل محمد عبد المعطي الهمشري

وابي القاسم الشابي وايليا ابو ماضي . وما قصائدهم المعروفة « شاطىء الاعراف » و « في ظلال وادى الموت » و « الطلاسم » ، الا أمثلة على انتشار الفكر الفلسفي بين شعراء العربية قبل الحرب العالمية الثانية ، اذ كانت رؤى المذاهب السياسية والافكار الاقتصادية والمبادىء الاشتراكية ، غير واضحة في اذهان كثير من الشعراء والكتاب ، اذ لم تتضح تلك الرؤى والمبادىء الا بعد تلك الحرب ، لما تراخت قبضات الاستعمار . واضحت الصحف مجالا للمعارك السياسية والمذهبية . وانتشر الوعي بين المواطنين . ومن ثمة ارتفع لواء الشعر الحديث او المطلق او الحر ، لكي يتسع للتعبير عن افكار سياسية واقتصادية ، قد تضيق بها الاشكال القديمة للشعر .

وعلى الرغم من ان النقاد قد يختلفون في سبب أو اسباب قلق التجاني ، الا ان جمهرتهم تميل الى القول بان التجاني كان يتردد بين الشك واليقين ، حتى آخر حياته .

ويقول الدكتور عبد المجيد عابدين ، في هذا المعنى ، في كتابه « التجاني شاعر الحب والجمال » :

(ان شاعرنا ظل مترددا بين عقله وروحه او بين شكه ويقينه . وليس من اليسير ان نتبين من شعره على اي الحالين قد استقر . واذا كان التجاني قد عبر هنا عن حيرة الشباب التي وصفها علماء النفس ، فالاقرب ان تكون قد ظلت مع التجاني الى آخر ايامه مترددا بين طرفيها . ولو عاش التجاني وتجاوز بعمره مرحلة الشباب لكان في مقدورنا أن نتبين على اي الحالين استقر التجاني بعد ان قطع مرحلة الحيرة عند الشباب » .

وهذا الرأي الذي انتهى اليه الدكتور عابدين . ونتفق معه فيه . يخالف الى حد كبير . رأي كل من الاستاذ محمد محمد علي .

الذي يرجح ان مذهب الشاعر كان هو الشك ، كما يخالف أيضا رأي الاستاذ عبد الله الشيخ البشير الذي يرى ان فلسفة التجاني قد مرت باربعه اطوار أنتهت به الى اليقين والايمان العميق .

ففي بحث عنوانه «وحدة الوجود» (دراسات في شعر التجاني)، تناول الناقد محمد محمد علي فلسفة التجاني بالبحث الدقيق العميق ، وانتهى الى القول :

(لهذا كله فانى أرى ان هذه القصيدة (يعني الصوفي المعذب) تمثل ما انتهى اليه أمر الشاعر من جهة الاعتقاد . فاذا اعتبرنا هذا واضفنا اليه ما رأينا في مقطوعاته «يؤلمني شكي» و « ودعت أمس يقيني » و « الصبي العابد » و «حيرة» وبيتي الشك في « الله » ، لم يكن امامنا ما يمنعنا من الجزم بان مذهب الشاعر هو الشك لا وحدة الوجود .

وهذا الشك لم ينتقل اليه من وحدة الوجود ، بل انتقل اليه من الايمان بالله كما يصوره القرآن ، وكما يصوره المتكلمون .)

ظاهر ان الاستاذ محمد محمد علي ذهب الى ابعد مما ذهب اليه الدكتور عابدين ، اذ انه عزا الاشعار التي يتضح فيها الايمان الراسخ وضوحا بينا الى تغلب النزعة الدينية ، في بعض الحالات فحسب ، فضلا عما كان من آثر للمرض عليه ، مما اضعف صحته ، وجعله أميل الى التسليم بقضاء الله وقدره ، وخاصة في آخر قصائده « فاحتفظها ذكرى » .

أما الاستاذ عبدالله الشيخ البشير فيرى ان عقيدة التجانى قد مرت باربعة اطوار ، اذ كان في الطور الاول مؤمنا ايمانا تقليديا هادئا نتيجة تأثره ببيئته المسلمة المتصوفة ، ونتيجـــة العرف أيضا ، ولكن ــ في الطور الثاني ــ تزعزع ايمانه نتيجة اطلاعه على كتب الفلاسفة ، واستدل على رأيه ذلك بقصيدتي « قلب

الفيلسوف » و « انبياء الحقيقة » .

« والطور الثالث هو طور الشك المجتاح الذي امتحن فيه الشاعر أعسر امتحان في دينه وتوحيده ومعبوده » .

ويستدل الناقد على رأيه بقصائد كثيرة منها « ودعت أمس يقيني » و « يؤلمني شكي » و « الصبي العابد » و « حيرة » .

ثم استطرد الناقد ليقول :

(وهكذا مرت عقيدته بطور انتقال عانت منه نفسه جذبا مريعا بين قوتين متجاذبتين بين الشك واليقين يظهر ذلك من قصيدته « الصوفي المعذب » وهي عندي تمثل هذا الطور الانتقالي او بداية الطور الرابع فالشاعر فيها موزع المشاعر تارة هو صوفي يتأمل في دقائق الكون تأملا قلبيا فيه كثير من المجاهدة والعناء .. وتارة نجده متوترا يشكو ظلام الروح وغائلة الشك وحرمان « المشاهدة » ... وفي هذه القصيدة يخطو خطوات جادة في طريق اليقين بما يبذل من تأملات قلبية صادقة يحاول الوصول من خلالها الى مرفأ امين . وهذه التأملات وان لم تفرغ من قلبه بذور الشك تماما الا انها كانت نقطة انطلاق هامة لروحه نحو الايمان الكامل الذي نجده في قصيدته « الله » .)

ورغم وجاهة الرأي المتقدم . الا انه يفتقد السند والدليل ، من ناحية معرفة تواريخ كل قصيدة على حدة ، وهو ما لم يوفق الناقد في العثور عليه . مثلما لم اوفق الا في معرفة البعض منها فحسب ، كما ان مما يؤخذ عليه ، هو أن القصيدة الواحدة هي التي تتضمن « جذبا مريعا » على حد تعبيره ، وعلى ما يتضح مما يلي أيضا .

أما وقد استعرضنا اسباب قلق التجاني ، والتحقق من تردده بين اليقين والشك أو بين الشك واليقين . فاننا نود ان نقتطف

للقارىء بعض الابيات من شتى قصائده ، التي يستظهر فيها ذلك القلق ، من ناحية ، ولكي يستطيع القارىء تفسير القصائد الاخرى ، على ذلك الضوء ، من ناحية اخرى .

ففي قصيدته « الله » ، وهي اولى قصائد الديوان ، بعد « اشراقه » ، يصرخ التجاني :

برح الشك بالفؤاد فآمنت
ولكن في ريبة أو رياء
ثم أيقنت مؤمنا ثم ما أد (م)
ري وكم ذا لديك من لأواء
علقتني من ظلمة الطين ما
أقعدني عن رحابك البيضاء

ويقول في « انبياء الحقيقة » :

ايها العقل أنت يا حيرة العقل
ولما تكن بنفسك أجدر
يا قوي تهدم الحياة وتبنيـ
ـها وتذرو الورى هباء وعثير
أأله في الارض . انت أم الشيـ (م)
طان ينهي في العالمين ويأمر
وجنون انت ام انت عقل وموجو
د حقيق ام انت وهم مصور ؟!

ويأسى التجاني في مرارة حزينا بائسا اذ يقول في « ودعت مس يقيني » :

مضى بك العقل لم تسعد به أثرا
واعتادك الشك اذ ضاقت بك السوح

ودعت أمس يقينـــي في مــــوأدة
غبـــراء تعصف في اعماقها الريح

ويحترق التجاني حزنا في « الصبي العابد » ، اذ يقول :

ومضــى الشك باليقــين فلله
فــؤاد تأكلتـــه الرزايـــا

ويهلع التجاني ويتوجع اذ يقول في « يؤلمني شكي » :

أشك يؤلمنــي شكي وابحث عن
برد اليقــين فيفنــى فيــه مجهودي
أشك لا عـــن رضا منــي ويقتلني
شكــي ويذبل من وسواسه عودي
الله لــي ولصرح الدين مــن ريب
مجنونة الرأي ثارت حول معبودي
ان راوغتنــــي في نسكــــي فكم
ولجت بي المخاطر في ديني وتوحيدي

ويعبر الشاعر عن حيرته ، في قصيدته « حيرة » مرة اخرى ، اذ يقول :

بـين اثنـين أســر أم أبكـــي
قبس اليقــين وجــذوة الشـــك
في النفس حاجـــات وان خفيـــت
فلعلهـا ضرب مـــن السنــوك
والعقل ينصب مـــن حبائلـــه
نصبـــا معاقدهـا مــن الشــوك

انا من فـــوادح ما تجر يـــدي
أبـدا قنيصته ذلك الحبـك
مـــا زلت أقطعــه ويعقدنـــي
والمـرء بـين قلاقـــل ربــك

ويشرح الشاعر ما لاقاه من عذاب أيضا من قصيدته « الصوفي المعذب » ، التي يقول فيها :

انا وحـــدي كنت استجلي من العالـــم همســـه
اسمـــع الخطرة في الذر واستبطن حســـه
واضطراب النور في خفقته اسمـــع جرســـه
رب سبحانـك ان الكون لا يقـــدر نفســه
صغـت مـن نارك جنيـــه ومـــن نـــورك انسـه
يساقط دونـــي يـا نعيمـا مشرق الصفحة
نضـرت في قربـــه نفسي وزايلـت غضونـي
فمشت غائلـــة الشـــ(م) ك الى فجـــر يقينـي
قضت اللـذة فاسترجعـ ـهـــا لمـــح ظنونـــي

ويصف شاعرنا نفسه في قصيدته « نفس » :

الله ايتهــــا الوديعـــــة ان تشط بـك الظنون
الفجـر ملتهب الجـوا نح والدجى شرس حرون
يتزاحمــان اليـــك في و لع وتستبق القـرون

ويقول ايضا في قصيدته « نفسي » :

هي نفسي اشراقةمن سماء اللـــه تحبـو مع القرون وتبطي

ويح نفسي تنام من دونها الانفس شوطا وما تهـــم بشـــوط
هي قسطي من السماء فما اضيـع في العالم الترابـي قسطـي

ويصف قلبه . وما انطوى عليه من ضياع وقلق . فيقول :

يا قلب لا كالقلوب يدفق منك الالم
ترنو وراء الغيوب عينا تحس العدم
ينثال منك الغروب وتستفيض الظلم

واكثر قصائد الديوان في التعبير ـ في نظري ـ عن حاله الذي تردد بين الايمان والشك . قصيدته « طفل » ، التي يقول فيها :

سبحانه كم الهم العقول جنونا وحمق
يشك ما يحيا وان اشفى على الموت فرق
وكم ـ تعالى ـ عميت عنه قلوب من خلق
سبحانه قد وضحت آثاره فينا ودق
رمى بهذا الطفل في الارض ومن ثم رزق
رمى به في موكب الدنيا مثالا للقلق

التصوف في شعره :

ليس ثمة شك في ان التجاني قد تأثر باحكام التصوف الاسلامي، نتيجة فقره وعفة نفسه وقراءاته كتب التصوف ، على ما سبق ان رأينا ولكن تأثره بذلك كان عارضا ومؤقتا ، اذ سرعان ما كان ينفلت منه ، لكي يتمرد ويشكو ويتعذب ويسخر بل ويثور . وهي مشاعر تتجافى مع روح التصوف .

وشهرته بالتصوف ، جاءته ـ فيما يبدو لي ـ نتيجة تسميته احدى قصائده « الصوفي المعذب » ، وقد انطوت على فلسفة وتصوف واحاسيس ومشاعر كثيرة . ولذلك وقف لديها النقاد وقفة طويلة ، فذهب بعضهم الى القول انها تدل على تصوفه ، مثل

الدكتور احمد غلوش . الذي قال انها عبارة عن نظرات و شطحات صوفية ، وذهب الاستاذ عبدالله الشيخ البشير على انها بداية ايمان الشاعر في مرحلته الاخيرة التي انتهى اليها ، وذهب الاستاذ محمد محمد علي، على انها تدل على شكه. ويرى الدكتور عابدين. انها كأكثر قصائده تتردد بين الشك واليقين . على ما سبــق شرحه .

ومهما يكن من أمر ، فاننا نعتقد ان التجاني لم يكن راضيا عن فقره ، بل لم يكن راضيا عن زهده ، والفقر والزهد هما عماد التصوف .

وفضلا عن ذلك . فلم يكن التجاني ممن يسلمون بأمور الدين تسليما مطلقا ، بل حاول جهده تفسير العالم من ناحية . وتغييره من ناحية اخرى ، ولذلك لم يكن التجاني صوفيا .

وعلى الرغم من ان بعض مقالات التجاني تدل على انه كان يعتقد ان الشعر موهبة او نتيجة الهام او امور خفية، وأن بعض قصائده وبعض ابيات متفرقة هنا وهناك في ديوانه ، تدل على ايمان عميق مطلق ، الا ان ذلك لا يغير من حكمنا على عموم شعره ، بأنه يتردد بين الشك واليقين ، اذ ان التجاني لم يكن متصوفا ، وان كان ذا نزعة صوفية تتجلى في قليل من شعره ، احيانا نادرة .

الفصل الثامن

الطبيعة فى شعره

عاش التجانى طوال حياته بامدرمان ، ولذلك كان من الطبيعى ان يضيق بالشمس المتقدة اللاهبة فى اكثر أيام السنة ، كما يضيق بالاشجار غير المثمرة في منزله ، أو الهبوب عندما يثور . ولذلك ، لم يكن امامه للاستمتاع بجمال الطبيعة ، غير ان يذهب الى شاطىء النيل حينا ، والى جزيرة توتى حينا آخر ، او ان ينطلق فى الخلاء المجاور لمنزله ، ليلمح عن بعد جبال كررى او بعض التلال الاخرى ، ولعله استطاع ان يشهد فيه الشمس وهى تختفى رويدا رويدا وراء الافق ، أو البدر المنير الساطع ، أو لربما كان يصحو مبكرا لكي يجول فى ذلك الخلاء ، عبرالمقابر والاشجار ، منتشيا بنسمات الصباح المنعشة الرقيقة ، مستمعا لشقشقة الطيور الغادية الرائحة او لهديل اليمام الحزين .

وعلى هذا ، كان من الطبيعي ، الا تكون ثمة صلة عميقة بين التجاني ، او ان شئت فقل الشاعر السوداني ـ كالعربي عموما ـ وبين الطبيعة ، ولهذا لا غرابة في أن يتبلور حب التجاني للطبيعة في مشاهدو مناظر بعينها ، مثل القمر والنيل وجزيرة توتى في الصباح ، تلك التى يجد فى اضوائها او ظلالها او جنباتها الحنان والسلوى والراحة . ويبدو لى ان اضافة كلمتى « فى الصباح » الى توتى ، فى قصيدته المعروفة ، تدل على انه قصد الى وصفها فى وقت معين ، هو الصباح ، لا وقت الظهيرة مثلا ، عندما تنقلب الطبيعة الرحيمة الى وحش لايرحم فى كثير من الاحيان .

لذلك. فان شعر التجانى فى الطبيعة ، وان لم يضف جديدا على الشعر العربى ، بل يقصر عن السمو الى ما وصله اليه شعر المهجزيين مثلا . اولئك الذين حاول التجانى ان يترسم خطاهم فى الاحساس بوحدة الطبيعة احساسا يجعل للانسان صلة حميمة عميقة بكل مظهر من مظاهرها ، الا ان التجانى استطاع ان يمزج احساسه بمظاهر الطبيعة مزجا انسانيا رائعا ، ولذا كانت مجالا لتأملاته وافكاره الفلسفية وعواطف حبه وشهوته واحزانه وآلامه .

ولنحاول جهدنا ان ندلل على ذلك بمقتطفات من نثره وشعره.

البدر والنجوم :

عندما يتمدد ابن العشرين المراهق ، على العنقريب، فى ساعة الظهيرة ، ويتقلب على ظهره ، ثم بطنه ، ثم يتقلب مرات عدة ، فانه لا يجد مايشغله فى الغرفة او الصالة . فان الاثاث لا يعدو ان يكون بعض العناقريب ودولابا او صندوقا وشماعة تعلق فيها الملابس ، او لربمامسامير متفرقة مدقوقة على الحائط .

وعندما كان التجانى يمعن النظر فى الارض ، لابد انه وجد رمالا ناعمة ، وذرات دقيقة من التراب ، وحصى يختلط برمال الغرفة ، بل ربما عاين حجرا او احجارا كثيرة .

وانجال ببصره مليا ، لمح نملة ماشية ، واخرى جارية، وثالثة وهي تحمل ذرة من طعام او فتات من حشرة صغيرة أو ركام من القش المتناثر من الزبالة .

وعندما يتمدد المراهق، على العنقريب ، بعد مغيب الشمس او فى الليل، لم يجد بدا ــ بل قد لا يجد كثير من المواطنين الذين تظلهم نفس السماء ــ الا التطلع للسماء .

لقد حدق لعله يلمح اول نجم تمكن رؤيته فى القبة الزرقاء

فيطمئن لرؤياه . او يرى النجوم تنتشر فى صفحة السماء ، لينقل ناظريه بين نجم وآخر .

وعندما كان يعلم ان اليوم مطلع الشهر . فلا بد له من الاحتفال بمطلع الهلال الوليد، مترقبا اياه ليلة بعد اخرى . وهو يزداد نموا ولمعانا يوما بعد يوم ، حتى يكتمل بدرا .

والبدر فى نظره احلى وجه للرؤية .

انه المقابل لاضواء الشمس اللاهبة المحرقة فى صيفنا .

وبينما يكون الجو بالليل شاعريا يدعو للمتعة والراحة اذا بالجو في الصيف . يدعو للقلق والزهد واثارة المشاعر والاعصاب .

ويظل ذلك الانسان ــ أو ان شئت فقل التجانى ــ يراقب البدر لما يعود الى النقصان، وينقل عينيه بينه وبين النجوم الاخرى. ويراه وهو يسير ويسير أو يدور ويدور او وهو يخترق حجب السماء او سحبها البيضاء او الدكناء او الزرقاء ، وكأنه مشدود الى السماء برابطة خفية لا يدرك كنهها ، ولكنه يتأملها ، حتى يمل من التأمل ، او حتى يدركه النعاس ، فيغيب فى عالم الاحلام.

هذه الروابط المادية هى مصدر ومظهر للقلق معا ، وللاعجاب أيضا .

واعجاب التجانى بالبدر تجده ظاهرا فى كل من نثره وشعره.

وهو يقول فى مقاله « القمر والزهر واثرهما فى الشعر العربى » (ام درمان ــ العدد الثامن) :

(ذهبت والبدر ــ وقد كانت هذه ليلته الرابعة عشرة ــ يتحدى الشمس بما يفيء علينا من نور وظلال ولكن اى نور مما يتطرى به القلب ويندى به الحس ...

وألهتنى طلعة البدر وروعة الزهر وتزاويقه واصباغه عما

امضى له من شأن . فاذا انا احلم وافيق ولكن كما يفيق المسحور وأهنأ بهذا الحلم والذه الوانا من اللذة التي ما ذكرت اني مفارقها الى لقية اخرى الا وامتلأت نفسي لها الوانا من الحسرة والالم لان داري ليست مما تنبت الزهر وان اطلعت القمر !....)

وفى قصيدته « فجر فى صحراء » يقول مأخوذا أو كالمأخوذ بالقمر :

أملأ الروح من سنا قدسي — مبهم كالرؤى وديع رضي
قمرى كأنما سكب البد — ر عليه من فيضه القمرى
واغمر القلب من مفاض من الفج — ر وضيء جم الندى عبقرى
عجبا للجلال والحسن ماجا — في اطارين فاتر وقوى
ينسجان الهوى من الفجر بررا — علويا لشاعر علوى
صاح من روحه وكبر فى اعما — ق دنياه صارخا كالصبي :
أو هذا الجمال يا رب هذا السد — حر من أجل ذلك الآدمى؟

وفى قصيدته « نفس » يناجى النجم وهو يقظان من اجل شعبه :

دع نفسى تنام من دونها الانف — س شوطا وما تهم بشوط
انا والنجم ساهران نعد الصب — ح خيطا من الشعاع لخيط
كم صباح نسجته انا والنجم — وارسلت شمسه من محطى
قلت سيرى على اسرة قومى — واستحرى على مضاجع رهطى
انا جراءهم سهرت ليستغشوا — ومن اجلهم أصيب وأخطى !!

النيل :

ظل التجانى يركب العربة مع المرحوم سليمان داود منديل ، اثناء ذهابهما الى مكاتب « الجريدة التجارية » ، لما كان يعمل

مصححا بها . ويركب الترام اثناء عمله بجريدة النيل ومجلة ام درمان ، كما اعتاد الذهاب الى ابى روف للجلوس بشاطىء النيل ليلا ، او لزيارة استاذه ابى بكر عليم او اصدقائه هناك .

ويخيل الى أن لم يكن للتجانى ، والحال هذه ، صاحب غير النيل . واخاله كان يجلس في العربة او الترام ساهما شاخصا محدقا في امواج النيل الفضية او الزرقاء ، حتى تداعبه الرؤى فى يقظته أو أحلامه ، كما انه لم يكن يجلس بجانب النيل الا حبا فيه وتقديسا له .

ولما كان النيل قد ارتبط فى مخيلته ، بذكرى الشقيقة مصر . وأمله فى نهل الثقافة منها ، فقد كانت مشاعره تجاهه . لاتكاد تنفصم عن آماله الذاتية ، وكانت رؤاه الخاصة ، لا تكاد تنفصم عن رؤى الجماعة التي عاش بين ظهرانيها . ولذلك . كان حب الطبيعة ينطوى على حب الوطن ، ليس للسودان فحسب . بل لكل بلد عربى .

ولقد تعبد التجاني في محراب النيل تعبد الابن المخلص . اذ قال في قصيدته « محراب النيل » :

انت يا نيل يا سليل الفراديس	نبيل موفق فى مسابك
ملء اوفاضك الجلال فمرحى	بالجلال المفيض من انسابك
حضنتك الاملاك فى جنة الخل	د ورفت على وضي سحابك
وأمدت عليك اجنحة خضرا	واضفت ثيابها فى رحابك
فتحدرت فى الزمان وافرغت	على الشرق جنة من رضابك
بين احضانك العراض وفى كف	يك تاريخه وتحت ثيابك
مخرتك القرون تشمر عن سا	ق بعيد الخطى قوى السنابك
يتوثبن من الضفاف خفافا	ثم يركضن فى ممر شعابك

وحروف ريانة في اسمك «النيـ   ل» ونعمى موفورة فى جنابك
انت فى مسلك الدماء وفى الآ(م)   نفاس تجرى مدويا فى انسيابك
ان نسبنا اليك فى عزة الوا   ثق راضين وفرة عن نصابك
او نعمنا بك الزمان فلم نبـ   ل بلاء الجدود فى صون غابك

ولطالما ذكر التجانى النيل بالخير فى كثير من قصائده .فجزيرة توتى فى نظره دره يحفها النيل .

وفى قصيدته « فى زورق » يقول :

يا نيل يا آية ما للقضاء   من جبرة تدفع شتى الصور
رفقا بمن آواك الهامه   وصاغ فى صدرك وحى الجمال
آماله يا نيل احلامه   شبابه الغض الوريف الظلال

ويقول فى قصيدته « الزورق الاخضر » :

يا نيل لم تحبس لانسان   يخفك في جنبيك قلبان

ويصف نفسه فى قصيدته « الادب الضائع » قائلا :

وعلى النيل ما يزال مطلا   جانحا دونه بيمنى ذراعه

ويصف نفسه مرة اخرى فى قصيدته « نفس » فيقول :

نفس تطاير كالشعا   ع وتستحيل الى حنين
هى تلك نفس فتى أقا   م بها على حرم الفنون
فى النيل تقتحم العبا   ب وتستشيط وتستلين
وهناك في ثبج الميا   ه وبين مسرحها الامين
وقفت تتمتم للالـ   ـه بما تقدس أو تدين

ويمزج شاعرنا عواطفه نحو النيل بعواطفه القلبية فى قصيدته

« انت ام النيل » ليقول :

غننا يا جميــل اغنيــة النيـ ... ـل بسحر عينيــك فيــه
انت يا فاتنى ام النيل زخار ... بنفسى كليكمـا من شبيـه

قصيدته « ثقافة مصر » :

مناظرة اشترك فيها الاديب المصرى حسين صبحى ، فقال فـى
اراد ان يدافع عن ثقافة مصر ، بعد ان هاجمها بعض الادباء فى
ويعبر الشاعر عن عواطفه وآماله وافكاره الخاصة والعامة لما

انما مصر والشقيق الاخ السـ ... ـودان كانا الخافق النيل صدرا
مصر راشدت وثقفت واعدت ... منه شمسا واطلعت منه بدرا
هيأت فكره فازغــب فاستشـ ... ـرى فاعيى ركضا واعجز طفرا
كلما انكــروا ثقافـــة مصر ... كنت من صنعها يراعا وفكرا
جئت في حدها غرارا فحيا اللـ ... ـه مستودع الثقافـــة مصـرا
نضر الله وجهها فهـــى ما تز ... داد الا بعــدا على وعسـرا
يا بن مصر وعندنا لك ما نأ ... مل تبليغـــه من الخير مصـرا
قل لها من صراحة الحق والحـ ... ـق بان يؤثر الصراحـة احرى
وثقى من علائق الادب البـا ... قى ولا تحفلى باشياء اخرى
وقفى بالصلاتمنحيث لا تعر ... ف الا مسالك الفكر مجـرى
كل ما فى الورى عدا العلم لا ... يكبر شعبا ولا يمجد قطـرا

توتى :

يكاد ينعقد اجماع النقاد لدينا بان قصيدة « توتى فيالصباح» اجمل قصائد التجاني في وصف الطبيعة ، بل انها من ابدع شعر الوصف عموما ، وفيها يقول :

يــا درة حفهـــا النيـ ... ـل واحتواهـــا البحر

صحى الدجى وتغشا ... ك في الاسرة فجر
وصاح بين الربى الغـ ... ـر عبقري أغر
وراح ينفض عينيه ... من بني الأيك حر
فماج بالايك عش ... وقام في العش دير
كم ذا تمازج فن ... على يديك وسحر
يخور ثور وتثغو ... شاة وتنهق حمر
والبهم تمرح والزر ... ع مونق مخضر
تجاوب اللحن والطحـ ... ـن والثغاء المسر
وهب صوت النواعـ ... ـير وهو في الشجو ـر
ان الجرار وقد ضا ... ق بالقليب المسر
تكسرت وهي تهوى ... فما تلاءم كسر
فتلك معصوبة الرا ... س كم تنى وتخر
وتلك فوضى وهاتيـ ... ـلك للخواطر قبر !
وظل قرنك يا شمـ ... ـس آنذاك يذر
ذياك يغرق في ... العشب جاهدا ما يقر
وذاك يعنيه حرث ... وذاك يعنيه بذر
وماج في الغيط نشء ... ملء النواظر خزر
هناك فول وهذا ... ك في السنابل بر
وما تعذر شيء ... ولا تعسر أمر
مشى الضحى وله ... بعد في رباك مجر

وعقب الدكتور عبد المجيد عابدين ، على القصيدة ، في اعجاب بالغ جعله يبالغ اذ يقول : (أرأيت كيف استطاع الشاعر ان ينقل اليك قصة شعوره بحب هذه الجزيرة ، ومواطن الجمال التي دفعته اليه . وما اجدر ان يكون هذا نشيدا وطنيا ، لان مثل هذا الشعر انجح في تحبيب الوطن الى النفوس من تلك الاناشيد

التي تدعو الى الفداء والتضحية .)

الخرطوم :

ورغم اننا نوافق الاستاذ محمد محمد علي ، على نقده وقوله : (ومدينة الخرطوم في قصيدة التجاني «الخرطوم» مدينة اخرى غير الخرطوم التي يعرفها التجاني في حياته ، وغير الخرطوم التي نعرفها اليوم ، بعد ان اصاب السودان واصاب عاصمته شيء من التطور) ، الا اننا نرى ان تلك القصيدة يمكن ان توصف بالشعر المصنوع أو المتكلف ولكنها لا تدخل في باب الغموض ، اذ تحدث فيها التجاني عن اوصاف غير متداولة في الشعر السوداني . وان كانت مستعملة لدى بعض شعراء مصر والمهجر مثل علي محمود طه وابراهيم ناجي وشفيق المعلوف واحمد زكي ابي شادي ورشيد سليم (الشاعر القروي) وخاصة تشبيهات التجاني التي يقول فيها « الزهرة المونقة » و «ضفافها المورقة» و «اغنية مطرقة» و « شمسها الخمرية » و « القمر الرافه » و« حجرات الذهب » .

ويرى الاستاذ عز الدين اسماعيل في دراسته « من مظاهر الرومانتيكية في شعر التجاني » ، ان تلك القصيدة كغيرها من قصائد التجاني في الطبيعة ، انما هي مظهر من مظاهر الرومانتيكية ، مثل ثورته على التقاليد العامة في المجتمع السوداني وثورته على المنهج التعليمي في المعهد العلمي . بل والنظام التعليمي في الخلوة ايضا . ومثل ثورته على الوضع السياسي . ولكنه يستدرك ليقول في ص ١٠٠ من كتاب « دراسات في شعر التجاني » :

(وانني بعد هذا الذي قدمته اقول ان رومانتيكية التجاني لم تكن رومانتيكية خالصة ، اي انه لم يلتزمها في كل شعره ، ويمكننا ان نقول انه قد تأثر بالرومانتيكية فيما تأثر به من

مطالعاته ، ولكنه لم يجعلها مذهبا له ، من ذلك ان له شعـــرا واقعيا كقصيدة «توتى في الصباح » ، وقصيدة « الخلوة » ، وان كانت التعابير والاخيلة الرومانتيكية تجد سبيلها الى هذا الشعر ايضا .)

ظاهر مما تقدم ان الاستاذ عز الدين يفسر شعر التجاني على ضوء المذهب الرومانتيكي ، على خلاف اكثر النقاد مما أوضحته من قبل ، فيما يتعلق بتفسير المذهب الشعري للتجاني .

ولا ينحصر الخلاف في ذلك فحسب ، بل في الاسباب التي دفعت التجاني الى التعبير عن قلقه وشكه وثورته وتمرده اذ يقول في صفحة ١٠١ :

(هذا وان بعض مظاهر الرومانتيكية التي لمسناها في شعر التجاني قد لا تكون من أثر مطالعاته الرومانتيكية ، فقد تكون منبعثة من طبيعة نفسه دون مؤثر خارجي ، وقد تكون نتيجـــة لمطالعات اخرى ، فالصوفية في شعره مثلا قد يكون سببها التأثر بالرومانتيكية ، وقد يكون سببها التأثر بمطالعاتـــه في كتـــب المتصوفة ، وقد تكون حياته التي كان يحياها من ضنك وفقر وتربيةاسلامية هي التي انبثقت عنها صوفية ، وقد تكون هذه العوامل مجتمعة هي سبب ذلك ...)

يخلص مما تقدم ان التجاني قد اتخذ من قصائده في الطبيعة سلما للتعبير عن آرائه وافكاره ، في اكثر الاحيان ، وان لم ينعدم لديه الدافع او المبرر لتبيان انفعالاته النفسية تجاه سحـــر الطبيعة وروعة مشاهدها ومناظرها ، وان مذهبه هو الواقعية ، سواء في الشعر ام في النثر .

الفصل التاسع

الحب في شعره

ليس من اليسير تعريف الحب أو غيره من العواطف الانسانية، رغم ان قاموس الادب ، يزخر بآلاف من الاشعار والجمل التي تتحدث عنه ، وان علوم النفس والجمال والاجتماع ، تحاول جاهدة وضع تعاريف لكثير من المصطلحات الادبية او الانسانية.

ولعل من المسلم به ان الحب الوان وانواع ، ولكن يقصد بالحب في الشعر العربي ، ما عرف بالغزل فحسب ، دون سائر الوان الحب الاخرى ، مثل حب الانسان لوالديه او ولده .

وتحتاج عاطفة الحب ـ ككل عاطفة اخرى ـ الى الصدق ، ولذلك ، ما لم يصدر الشعر عن عاطفة ذاتية ، وتجربة خاصة ، فمن العسير ـ الا في النادر من الاحيان ـ ان يصدر شعر غربي صادق ، يعبر عما يجيش في نفس الشاعر ، وما يضطرم به قلبه من احاسيس ، وما تفيض به شرايينه من دماء حارة ، وما ينفثه صدره من آهات لاهثة .

ولقد ذهب فريق من النقاد الى ان حب التجاني ، كان حبا عاديا، ذلك الذي يقوم بين الرجل والمرأة ، وذهب فريق آخر الى ان حبه كان عذريا .

يرى الدكتور عبد المجيد عابدين ، ان التجاني قد تغنى بالجمال البشري وان حبه للجمال كان ذا أثر بالغ على حياته وفنه على السواء .

واستولى الناقد الكبير على ذلك بصيحات التجاني وصرخاته وابتهالاته الى محبوبته ، بل ذهب الى القول :

(ولكن يخيل الى ان الشاعر قد خص فتاة نصرانية بحب عميق. ومن اليسير على من يتصفح ديوانه ان يحكم بان كثيرا من شعره الغزلي ينطبق على حبيبة معينة ...

كل هذا يرجح ان الشاعر قد تعلق تعلقا شديدا بفتاة نصرانية. وربما الهمته كثيرا من شعره الذي تغنى فيه بنفمـــات الجمال البشري . وكان لها اثر كبير فيما نظن في الهاب شاعرية الشاعر . ودفعه الى نزعة صوفية واضحة) .

واستطرد الدكتور عابدين ليفسر ذلك الحب تفسيرا تاريخيا ونفسانيا . فقال : (ومهما يكن فان حب التجاني تلك النصرانية قد غلب على كل حب وملك عليه شغاف قلبه . ولعل هذه الظاهرة تؤيد نظرية القائلين بان الحب يزدهر ، ويقوى ، ويشتد ، حيث وجد التباين والاختلاف بين الجنسين المتحابـــين ، في اللون ، وقسمات الوجه ، والطبيعة ، والمكانة الاجتماعية ، والنسب.)

ولكن يبدو ان الدكتور عابدين ، لم يكن مطمئنا لذلك الرأي. اذ انه استطرد ، ليقول ان غزل التجاني يسمـــو على الجسد :

(على ان غزل التجاني يتميز بطابع معين ، فقد سبق ان قلنا ان التجاني قلما يصف الحبيبة وصفا حسيا ، ولم يرد الا وصف العينين ، ولكن حتى وصفه للعينين لم يكن مقصورا لذاته ، بل كان يتطلع دائما الى ما وراء العينين من معان مستورة ، وقوى خفية . ولا يهمه من العينين صفة الدعج ، او الحور ، او السعة او غير ذلك مما يقف عنده الشعراء الحسيون . ويعنون به . ولكنه يرى فيهما عالما اوسع ، وحياة ازخر .)

ثم يستطرد لكي ينقض الناقد رأيه الاول الى حد كبير . اذ يقول :

(وهكذا يتسامى التجاني في غزله عن الجسد ، ويسمو الى تغني الجمال وأثره على قلبه ، أو أثره على الجميل المحبوب .

فالتجاني في شعره ابعد الناس عن الاوصاف التي تقف عند الجسد ولا تكادتتخطاه .)

ومهما يكن من راي . فانه يخيل الى ان الدكتور عابدين لم يستقر على رأيه الاول ، لدى تصديره للطبعة الثالثة من ديوان « اشراقة » عام ١٩٥٥ . اذ جاء في مقدمته القيمة :

(ولكن الفترة التي قضاها التجاني في شركة سنجر كانت فترة الهام للشاعر وتامل في مفاتن الجمال . فقد كان بحكم عمله في الشركة ذا صلة مستمرة بالاجنبيات من حسان اليهود والنصارى اللائي كن يعملن معه في الشركة او اللائي كان التجاني يراهن في بيوتهن حين كان يذهب اليها لتحصيل اموال الشركة او اللائي كن يرتدن الشركة للزيارة أو الشراء . فلعل هذه الفترة ـ كما يرى صديقنا الاستاذ المبارك ابراهيم ـ كانت منبعا قويا لهذا الشعر الذي تغنى فيه التجاني بحسان اليهود والنصارى .

ولكن مهما يكن من أمر . وسواء أكان وحي الشعر الغزلي لدى التجاني امرآة بعينها او كثير من النساء . فلسنا على رأي الدكتور عابدين او الاستاذ المبارك ابراهيم من ان الجمال البشري كان ذا أثر بالغ على حياته او فنه . ولكنا على رأي جمهرة النقاد عن ان حب التجاني كان حبا عذريا أو ان شئت فقل تقليديا ، وكذلك كان اكثر شعره .

هو شعر مصنوع لا مطبوع فيما يتعلق بموضوع الحب .

ولقد اوضح الاستاذ ابو القاسم محمد بدري فى كتابه « الشاعران المتشابهان ـ الشابي والتجاني » (١٩٥٩) ، رأيه صراحة فيما يتعلق بحب التجاني ، فذكر بأنه حب روحاني او ان شئت فقل عذريا .

وهو يقول في صفحة ٦٥ :

(وصاحبنا التجاني يعبد الحسن في صوره المختلفة . في اجناسه المتعددة ، ولن يحول بينه وبين عبادته معتقد أو دين أو اختلاف في الاوطان او الالوان . وهذا هو الحب الرفيع البديع... لانه شيء روحاني ، لا يقصد به قضاء لذة أو اشباع رغبة وقتية عاجلة ، بل يقصد به عبادة الحسن وتمجيد الجمال في اي شكل من الاشكال وفي اى جنس من الاجناس) .

وفي رد الاستاذ فاروق الطيب البشير ، على رأي الدكتور عابدين ، انتهى الناقد الى القول :

(على ان الحب في حياة التجاني نفسه ليس بالشيء المقطوع به ، لا في عالم الواقع المحسوس ولا من خلال الديوان ، فنحن لا نجد في شعره الذي يتحدث عن الحبيب الا انجذابا وتشوقا وحرقة لاهبة ـ ولا نجد ذلك النوع من شعر الحبالذي يدور حول الهجر والوصال والصد واللقاء الى آخر هذه الرقعة التي يزرعها شعراء الحب عادة .)

ويرى الاستاذ صلاح احمد ابراهيم ، ان اشارات التجاني الى محبوبات ، لا عد لهن ، يدل على انه لم يكن عاشقا لاحداهن ، بل كان يتخذ من الحب سلما للهروب من الواقع او تساميا على الشهوة ، أو ملاذا يستدفىء فيه . وفي هذا يقول :

(والتجاني يحب ان يحب وليس هو بمحب ، فهناك حبيبان من يهود وقبط ، وهناك ابنة لبنان ، وهناك « الذي يبرز في

وجنتيه العضد » اي الجمال السوداني ، وهناك الذي يطري الجمال فيه ويغري صبوات النفوس ان تتوقد ... الخ لماذا ؟

لان التجاني كان يبحث عن ملاذ من واقعه ، عن ظل وهمي يتقي تحته حر الهجير ، ووجده في الجمال وفي الهرب ... الجمال ذي الخصائص الافلاطونية ...)

يخلص من كل هذا ، اننا نميل الى الرأي القائل بان حب التجاني كان حبا روحانيا لا ماديا . رغم ان للتجاني تسعة عشرة قصيدة. في موضوع الحب وهي :

طفرة ساحر ــ من وراء النافذة ــ هوى قاصر ــ تعويذة ــ رب ما اعظم الجمال وأمجد ــ الى ــ من هنا وهناك ــ جراح واحدة ــ كنائس ومساجد ــ وزهر الحسن ــ نعيم الحب ــ انشودة الجن ــ انت ام النيل ــ النائم المسحور ــ في الموحى ــ نعيم الحب ــ كذلك الحب ــ من اغوار القلب ــ لوحة الشاعر ــ جمال وقلوب .

واذا قلنا ان شعر حبه ــ وهو ما يعادل ربع قصائده ــ مصنوع لا مطبوع ، فاننا نغني بذلك اكثر شعره ، بطبيعة الحال ، اي اننا نستهدي في الحكم بالقاعدة لا الاستثناء .

ولا نرى تناقضا في هذا الرأي ، والقول بان بعض شعره الغزلي ، يميل الى الجودة ، رغم اصرارنا ــ في الحالين ــ على ان حبه عذري لا مادي ، وذلك لان الشهوة التي احتدمت في حنايا جسمه ، ومرارة انفعالاته لرؤية النساء عموما ، ورغبته الطبيعية في ان ينال حظه من الحب ، يمكن ان يكون دافعا لقول شعر جيد ، أقرب الى المطبوع منه الى المصنوع ، بل اقرب الى الواقع منه الى الخيال .

وعلى هذا ، فاني ارى ان من اجمل قصائد الحب ، قصيدته « جمال وقلوب » ، وها هي القصيدة :

وعبدناك يا جمال وصغنا لك انفاسنا هياما وحبا
ووهبنا لك الحياة وفجر نا ينابيعها لعينيك قربى
وسمونا بكل ما فيك من ضعف جميل حتى استفاض وأربى
وحبوناك ما يزيدك يا نغ زوضوحا وأنت تفتا صعبا
وذهبنا بما يفسر معناك بعيدا وانت اكثر قربا
من ترى وزع المفاتن يا حسن ومن ذا اوحى لنا ان نحبا
من تحرى علم القلوب هوى الحسن وقال اعبدي من السحر ربا
من ترى ألهم الجمال وقد اعطاه من جبرة الحوادث عضبا
ان يبث الهوى مفاتن في جفن بليغ وأن يجود ويأبى
من ترى وثق العرى بين مسحورين اسماهما جمالا وقلبا
انه صانع القلوب التي تنصب في قالب المحاسن صبا
يا جمال الحياة في حيثما كان امامنا وحيثما كان رعبا
وجمال الحياة في كل من أعمل شرقا وكل من سار غربا
أقس يا حسن ما تريد وتبغي أو فكن هنيا على النفس رطبا
أنا وحدي دنيا هوى لك فيها كل كنز من المشاعر قربى

وكذلك قصيدته « كذلك الحب » ، وها هي أيضا :

تجري مع الحب الى غاية خبيئة كالعطر في ورده
ادنى الى الانفس في طيبه بقدر ما يوغل في بعده
اذا انقضى كان على صدره قبر لذلك العرف من بعده
كذلك الحب وغاياته من برقه الخاطف أو رعده
يا من فجرت الحسن في عالم من جندك القلب ومن جنده
يرف سحر الكون في ثغره ويولد الحب على مهده
متاعب الدنيا وآلامها ومبعث الفتنة من عنده
هبتني القلب الذي لم يفق من سكرة الحسن ومن وجده

وانت يا من ذقت طعم الهوى　　من سحر عينيه ومن خده
عيناك هاتان وقد صيغتا　　من كبرياء الحسن او مجده
عيناك هاتان وما فيهما　　من هادىء السحر ومحتده
كمضمر سرا ومن بينه　　مغالق الكون ولم يبده
يا صحو دنياي واحلامها　　ورقة العابد في زهده
مثالية الحسن وآلاءه　　وبر ما سلف من وعده
تعالى يا لوعة (قلبي) وما　　تحرجت كفاك من وأده
نستقبل الروحي من حبنا　　ونبعث الموءود من لحده

ولعل من روائع قصائده أيضا ، « هوى وفقر » وقد سبق وردد ابياتها في موضع آخر ، ومطلعها :

سمي بالهوى فقري ومن لك با!　　هوى سماوى معنى كله أبدا نبل

الحسن والعين :

ونود ان نستطرد لكي نثبت للقارىء ، ان حب التجاني لم يكن حبا ماديا ، ذلك لان التجاني لم يعبر عن اعجابه بمفاتن الجسد الانثوي ، او لهيب الهجر او نعيم الوصال ، او تبادل الافكار ، ولكنه طرب للجمال أو الحسن طربا عاما ، اي انه مال الى الجنس اللطيف عموما ، لا ميلا خاصا لامرأة معينة ، ومثل هذا الميل يعبر عن شهوة الجنس عموما ، لا عن الحب ، وهو أمر طبيعي ، لا غضاضة فيه ، بل انه يعبر عن واقعية التجاني ، وبعبارة اخرى : فان الغزل الذي ندعوه مصنوعا ، يعبر في الواقع من الامر عن الحرمان الجنسي ، وهو حرمان يبلغ درجة من الحدة والحرارة ، تماثل في فترة الشباب ، حرمان الانسان من الاكل والشراب ، وخاصة بالنسبة لشاب مرهف الحس ، مثل

التجاني . لم يتقدم به العمر لكي يتغلب على عواطفه الحسية ، فكان الجنس بالنسبة له ، وهو في مقتبل العمر ، ضرورة ملحة، الى حد كبير ، وقد ساعد على اشعال نيران عواطفه ، وجـوده ومروره على حي المسالمة ، حيث يسكن بعض من المصريين والسوريين واللبنانيين والارمن ، وحيث كانت تسنح لهالظروف تبادل النظرات مع حسناء او حسناوات الحي ، او القاء النظر على فتاة او فتيات وراء زجاج النافذة ، أو على بعد من خطواته فـي الشارع الذي كان يسير به سواء بامدرمان او بالخرطوم . وحيث كان منزله بالقرب من المساجد والكنائس ، وكان له صحـاب كثيرون من ابناء الطوائف المختلفة . سواء في حي المسالمة او غيره من الاحياء .

ولذلك ، كانت بعض قصائد التجاني ، مثل : من وراءالنافذة وكنائس ومساجد وهوى قاصر ، ذات دلالات على تأثره بالبيئة المحيطة به ، تأثرا شديدا بالغا .

ولعله مما يؤيد ذلك ، ان اكثر النقاد المعجبين بشعر التجانـي الجمالي ، لم يملوا التكرار من ان التجاني كان لا يعجب بالعيون بل بما وراء العيون ، وانه لم يكن يقف عند الصفاتالحسية ، بل يتعداها دائما الى المجالات النفسية أو الروحية .

وللتدليل على كل ذلك ، نقتطف بعض ابيات من قصيدة « هوى قاصر » :

آهكذا ـ عوفيت ـ يا فاتـر   يملأ دنياك الهـوى الآسر
يا ثائر العينين من شـاخص   مفزع مطلعـه الساحـر
كل جلال الحسـن أو سحره   في دمعـة يخطفها الخاطـر

ويردد التجاني المجابه بالحسن مرة اخرى في قصيدته « تعويذة » فيقول :

عوذوا الحسن بالرقي أوخذوني ... أنا تعويذة لكعبته روحي
قربوها مجامرا انا وحدي ... عوذ الجمال من كل روح
واعصروا قلبي المفزع للحسن امانا وعوذوه بنوح

ويردد لفظ الجمال أربع مرات بدلا عن الحسن ، فيقول في قصيدته « رب ما اعظم الجمال وأمجد » :

أيها الناعم العزيز أحق ... ما بعينيك من تقى وتعبد
انت تطري الجمال في كل عين ... نعمت بالجمال في كل مرقد
وبنفسي لمست روحك واستر ... حمت عينيك للفؤاد المشرد
انت تطري الجمال فيك وتغري ... صبوات النفوس ان تتوقد
بعض هذا الجمال يظهر بعضا ... رب ما اعظم الجمال وأمجد
رب ما اعذب الجمال واحلى ... موقفا يسحق النفوس ومشهد

ولا يتجاوز التجاني معانيه والفاظه في قصيدته «من هنا وهناك» اذ يقول :

عجيب انت يا قلبي فكم ذا ... يهيب بك الجمال وتستجيب
يظل بك الهوى فرحا فتبكي ... فتشرب من مدامعك القلوب
ترود بك الصبابة كل يوم ... مجاهل كل آهلها غريب
وجن بك الهوى فهنا غرير ... علقت به ومن هنا حبيب
وتلك في معاصمها سوار ... وذاك في ترائبه (صليب)
يرف عليه من بطر ونعمى ... معالم كلها أرج وطيب
في عينيه مستذرى ومأوى ... لروحي وهي هائمة مريب
أصد بفعل سحرها عا الليالي ... فيمنع جانبي السحر الرهيب
وبين يديه ينبوع وعندي ... كؤوس هوى وفي شفتيه كوب
تغرغني الهوى فلكل عين ... تمر علي في الدنيا نصيب

ويعبد العين أيضا في قصيدته « من اغوار القلب » . فيقول :

يا ضرير الشباب من صاغ هذا	الحسن في زهوه وفي استكباره
من اذاب الضياء فيه ومن نغ	م شجو الهوى على أوتاره ؟
من رمى من أصاب من صور	الفتنة من زرها على ازراره
والفتور الذي بعينيك من موه	سحر الحياة في اقطاره
نظرة كالصلاة زلفى الى اللـ	ه وقربى لعزه واقتداره
غمروا بالحنان روحك واستنز	فت قلبي اليك من اغواره

أما وقد عرفنا المطبوع من المصنوع من شعره ، فان علينا ان نتناول بالبحث ايضا الغموض في شعره .

الفصل العاشر

الغموض في شعره

سبق ان ذكرت ان صديق التجاني الاستاد محمد عبد القادر كرف ، قد عزا الغموض في بعض شعر التجاني ، الى دراسته في المعهد من ناحية ، والى الاطلاع على بعض الكتب الفلسفية مثل الملك والنمل والحكم والرسالة القشيرية ، من ناحية اخرى .

ويميل بعض النقاد الى ذلك الرآي ، اذ يعتبرون ان استغراق التجاني في القراءة ، جعلته يميل الى الغموض في بعض قصائده.

والغموض في الادب عموما ، مسألة يصعب بحثها ، والوصول فيها الى نتائج واضحة محددة ، خصوصا ان التعبير عن كثير من المسائل والمشاكل العلمية والادبية والسياسية اضحى يتطلب دقة في التعبير ، من ناحية ، والماما بالموضوع الذي يتناوله الاديب او الباحث، من ناحية اخرى .

ولذلك ، فانني أود ـ بادىء ذي بدء ـ ان اذكر انني اعزى الغموض الذي اعتور بعض قصائد التجاني وبعض الابيات المتفرقة هنا وهناك : في ديوانه ، الى طبيعة المسائل التي بحثها التجاني . اذ ان الغموض يعتور بحث المسائل والمشاكل الميتافزيقية او مواضيع ما وراء الطبيعة ، لانها أمور لا تخضع للملاحظة او التجريب أو البحث العلمي .

لذلك نرى ان التجاني عندما يعبر عن آرائه ومعتقداته الدينية . يكون تعبيره واضحا الى حد كبير . وكذلك عندما تتغلب عليه

نزعة الايمان العميق ، ولكنه عندما يبحث في الامور الفلسفية البحتة او يحاول ـ احيانا ـ تأييد الدين بافكار فلسفية او نظرات عقلية ، فانه يقع في حبائل الغموض ، وهو أمر لم يقع فيه التجاني وحده . بل ان اكثر من حاولوا من فلاسفة المسلمين التوفيق بين الدين والفلسفة ، لم يستطيعوا تقديم آراء او التعبير عن المشاكل بمنطق يتفق ومنطق العصر الحديث .

ويرى نقاد آخرون ان الشعر بطبيعته يتطلب الغموض والرمز والايحاء ، ولكن الاستاذ محمد محمد علي ، لا يذهب في كتابه « محاولات في النقد » ، مذهب النقاد الذين يدافعون عن الغموض في شعر التجاني ـ وان أقروا به ـ لانه يذهب الى ان الغموض في شعر التجاني يكاد يكون عاما ، لانه لم يعتور قصائد شهيرة فحسب مثل « قطرات » و« قلب الفيلسوف » و «الزاهد »و«النيل» « والخرطوم » . بل يمكن ان نعثر على الغموض في معظم صفحات الديوان .

وفي هذا المعنى يقول الناقد في ص (٧٨) :

(لم تكن القصائد التي تعرضت لها من شعر التجاني مثالا فذا من الغموض الذي يدعو اليه التكلف والاعتساف ، فهذه المعميات كثيرة ، يستطيع القارىء ان يعثر عليها في معظم صفحات ديوانه ...)

ويبدو لنا ان الناقد قد تحفظ في قوله ذلك بعض الشيء ، كما انه استدرك ليقول في صفحة ٨٨ : (على أن الامر بالنسبة لشعر التجاني لم يكن أمر مذهب خاص من مذاهب الغموض . فهو واضح مفهوم حين يتحدث عما يحس ويعرف ، وهو ملتو غامض يضرب في أودية المبهمات والمعميات حين يتكلف ويغرب) .

وانتقد ايضا انتقادا مريرا قول التجاني في مجلة الفجر بان على الشعراء « ان يأخذوا بيد النقاد الى البحر الذي ينهلون منه ويطلوا بهم من الثنايا التي يستوحون فيها . ويهبط عليهم من شيطان الشعر او شيطان الجديد ، ليرى الواحد منهم بعين رأسه طول النهر وعمقه وزفرة امواجه وما تنبت شطئانه من ملائكة وشياطين » ، اذ عقب عليه بقوله في ص ٨٩ (اعتقد ان الشعراء في جميع العصور يردون منهلا واحدا ، يضيق ويتسع ، ويصفو ويكدر ، وتختلف روافده باختلاف العصور والاحوال . ومثل الشعراء في هذا مثل النقاد والمتذوقين للادب بصفة عامة . وما اظن الطبيعة حبت شعراء هذا العصر بحواس وقوى جعلت منهم انبياء يتكلمون لغة سماوية عليا . وضنت على النقاد المحدثين بالحاسة الفنية التي كان يفهم بها سلفهم شعراء عصرهم . فالصلة الوجدانية والفكرية بين الشعراء والنقاد كانت وثيقة العرى ، وبذلك يعترف التجاني . فما الذي خلق هذه الهوة السحيقة بين الناقد والشاعر في العصر الحديث ؟)

ظاهر مما تقدم ان الناقد قد شدد النكير على قول التجاني :« ان اهم ميزات الشعر الحديث انه اصبح يؤدي واجبه في الحياة كلغة سماوية عليا ، لا اصطلاحات بشرية قصيرة . وان الشعراء اصبحوا يؤدون واجبهم كانبياء تفتح لهم ابواب السماوات » ، اذ رأى الناقد ـ بحق ـ ان اعتماد التجاني على الذوق والادعاء بالالهام ، يجعل الشاعر خصما وحكما ، في حين انه يجب ان يكون ثمة معايير علمية للشعر او للنقد كأي مسألة اخرى ، من المسائل العلمية ، كما رأى الناقد بان الغموض لعنة على الادب وان الوضوح هو غاية من غاياته . فمذهب الناقد ـ على حد تعبيره هو « ان وظيفة الشاعر والفنان على اطلاقه شرح احساساته

وافكاره ووضعها في صور متناسقة مشرقة ، اعني انه يجب ان يكون صاحب الفن صادق الشعور ، يصور عن تجربة نفسية عميقة مكتملة ، وان يكون بعد ذلك بينا واضح البيان ...

ولكن ميزة الشاعر انه يستطيع ان يعبر تعبيرا واضحا جميلا عما يحسه الناس ويعجزهم التعبير عنه . »

ويعزو الناقد سبب الغموض في شعر التجاني الى سببين رئيسيين ، فيقول في صفحة ٨٣ من كتابه المذكور :

(اولهما ان أداته في الاداء لم تنضج فهي ما زالت في ريعان الحداثة الفنية .

والثاني يمت بصلة الى السبب الاول هو ان التجاني كثيرا ما يهجم على موضوعات لم تعش في نفسه ، ولم يكن لها صدى في حياته) .

ويبدي الناقد المعلم السبب الذي حدا به الى الكشف ـ في تفصيل ـ عن العيب الذي انطوى عليه شعر التجاني ، في جمل تفيض انسانية ورقة ، اذ يقول في صفحة ٨٩ من كتابه :

(أما بعد ، فأني لم أعمد الى هذه الناحية من شعر التجاني للنيل منه والحط من شأنه ، بل لاقرر حقيقة خالطت نفسي بعد صحبة طويلة لشعر الشاعر ، فانا لا انكر ان التجاني قد شق طريقه بين الصخور ، وانتهج منهجا لم يكن يسير لامثاله ، ولا مرموقا بعين الرضا .

ولعلي أكون أشد حبا له وتقديرا لمواهبه من اولئك الذين يكيلون له المدح جزافا ، ويعجبون من ادبه بما يجهلون . ويكفي لاثبات ذلك انني كنت اقرأ شعره قبل ان يجمع من ديوانه ، ايام كان الناس لا يتحدثون عنه الا لماما .

وقد عرفت بين اصدقاء ادبه بحبي له وحدبي عليه ودفاعي

عنه . ولكننا اليوم على ابواب نهضة ادبية ، نرجو لها ان تزدهر وتثمر وتسير على نهج قديم ، وللتجاني قراء ، ومعجبون من ناشئة البلاد ، وهم عماد النهضة الادبية المرتقبة ، وهم الذين نأمل ان يحققوا ما لم نستطع تحقيقه . فمن حق هؤلاء علينا ان ننفض اليهم خلاصة تجاربنا ، وان ننصب لهم معالم الطريق ،وان ننبههم الى مكامن الخطر .)

ورغم صحة ما ذهب اليه الناقد عموما ، الا انني أرى انقوله « فهذه المعميات كثيرة ، يستطيع القارىء ان يعثر عليها في معظم صفحات ديوانه » فيه مبالغة الى حد كبير ، ولربما كان من اسباب تلك المبالغة انه لم يحاول « استقصائها والاسهاب فيها » ، على حد تعبيره .

ولا يتسع المقام في هذا البحث لبيان كل قصيدة او بيت يعتوره الغموض من شعر التجاني . لانني اهدف من هذا المبحث، مثلما هدف الناقد ، الى معرفة اسباب الغموض ودواعيه ، ولذلك يتعين علي ان اكرر ، ان السبب الرئيسي لغموض شعر التجاني هو طبيعة المواضيع التي تناولها ، في الاعتبار الاول ، من ناحية . وللاسباب التي ذكرها الاستاذ محمد محمد علي من ناحية اخرى، ذلك لانني فهمت من قوله (التجاني كثيرا ما يهجم على موضوعات لم تعش في نفسه ، ولم يكن لها صدى في حياته) ، انه يعني الموضوعات المادية أو الحسية . وليست الموضوعات الماورائية .

وللدكتور عبد المجيد عابدين ، في مسألة الغموض . رأى جدير بالذكر والاعتبار .

وهو يقول في صفحة ٨٤ من كتابه :

(١) رأينا ان التجاني مولع بتجسيم المعاني وتبادل المحسوسات. ولكن اسرافه فيهما ، قد ادى به الى غموض العبارة وتعقيدها...

(٢) وكثيرا ما يلقى التجاني بعبارات غامضة في خلال الابيات اذ يترك الضمائر فيها مبهمة ، لا يعرف القارىء الام تعود على وجه التحقيق ، ويترك الصور غامضة دون توضيح ..)

والحق ان الغموض في شعر التجاني ، يحتاج الى مزيد من الدراسات ، اذ انه موضوع واسع . يتطلب بالضرورة دراسة كل قصيدة على حدة ، لمعرفة القصائد الواضحة أولا ، ومن ثمة معرفة القصائد الغامضة او التي يعتورها الغموض ، ثم تعيين الغموض في بيت أو أبيات ، وبالتالي نستطيع ان ننبه الناشىء او الدارس لادبه عن نواحي القصور في قصائده ، مثلما نبرز له مناحي الصدق والتفوق فيها .

الفصل الحادي عشر

نثر التجاني

اولا : آثاره :

يبدو لي ان التجاني – كمعظم معاصريه بل كمعظم الادباء والصحفيين السودانيين – لم يأبه بجمع نثره . بل أقتصر على جمع شعره وحده . على ما سبق ان رأينا في صدر الكتاب .

ولذلك . ظل نثره مغمورا ومنثورا في المجلات والجرائد القديمة . مثل الجريدة التجارية وملتقى النهرين والفجر وام درمان والنهضة السودانية .

ويجد القارىء في الفصل الاخير من الكتاب منتخبات من نثره، الغرض من نشرها . المساهمة في جمع نثره . اذ انني اعتقد ان نثره يساعد كثيرا على فهم حياته من ناحية ، كما يلقي ضوءاعلى شعره من ناحية اخرى . بل انه يقدم دليلا ساطعا قاطعا على وجدانه الاجتماعي . على ما سبق شرحه في فصل سابق .

وانني وان لم استطع جمع نثره كله ، فان الامل يراودني في ان يتم ذلك قريبا على يد غيري .

وبعد الرجوع الى بعض تلك المجلات ، يبدو لي ان أهم المقالات التي نشرت له هي كما يلي :

في الجريدة التجارية :

الادب والفن عندنا (العدد ١٥٥ – ١٩٣١/٢/٢٢)
حول رواية مجنون ليلى (العدد ١٥٩ – ١٩٣١/٣/٢٣)

في ملتقى النهرين :

الاجرام في التاريخ (العدد ١٦٣ – ١٩ /١٩٣١/٤)

الصحافة (العدد ١٧٧ ـ ٢ /٨/١٩٣١)

في الفجر :

في المستوى الشعري للامم (العدد ٦ ـ ١٦/٨/١٩٣٤)
معركة ادبية كبرى بين الشاعر والناقد (العدد ١١ ـ ١/١١/١٩٣٤)

في ام درمان :

القيادة الفكرية (العدد ١ ـ ١٥/٩/١٩٣٦)
الاثار الشعرية المبهمة (العدد ٢ ـ ٣٠/٩/١٩٣٦)
القمر والزهر واثرهما في الشعر العربي (العدد ٢)
المعهد العلمي (العدد ٣ ـ ١٥/١٠/١٩٣٦)
آل فلان وآل علان (العدد ٦ ـ ٣٠/١١/١٩٣٦)
سلحفاة شركة النور (العدد ٦)

ولعل من المسلم به ان شاعرنا هو الذي اختار النماذج الشعرية الواردة في كتاب « نفثات اليراع » . وصاحب التعليق عليها .

ومن هذا يقول الاستاذ حسن نجيله في دراسته « التجاني كما عرفته » :

(عمل التجاني فترة مع استاذنا وشيخنا الجليل محمد عبد الرحيم عندما انشأ مجلة ام درمان . وعندما انتوى السيد الشيخ محمد عبد الرحيم اصدار كتابه نفثات اليراع وكل للتجاني جمع وترتيب الجانب الذي خصصه في الكتاب لتسجيل نماذج من الشعر السوداني المعاصر والسابق وكتب التجاني الي في هذا المعنى عندما كنت اعمل في شندي وطلب مني شيئا من شعري لهذا الغرض فرددت عليه معتذرا ، بل رجوته ألا يتصدى لطبع اشعار الشباب لانها لم تنضج بعد وليست في المستوى الذي يستحق التسجيل ، فكتب الي مرة اخرى يلح في موافاته بشيء من شعري وأكد لي انه ماض في جمع المختارات وتقديمها للطبع .. ومضى في تحقيق

هدفه ، ومن خلال تقديمه لذلك الشعر استطاع ان يسجل آراءه ومفاهيمه للشعر وتستطيع أن ترى ذلك واضحا عندما تقرأ تقديمه للشاعرين الكبيرين البناء والعباسي اذ وصف شعرهما بالصناعة والتقليد وان آثر العباسي بالثناء على صناعته التي قال عنها انها « صناعة مجودة » ... وقد أثار هذا التعليق على تهذيبه ورقته ثائرة كبار الشعراء والمعجبين بهم ، وأرى ان نقاد المدرسة الحديثة اليوم لن يخرجوا عما جاء به التجاني في تقييم الشعر منذ ثلث قرن من الزمان) .

ولكن يبدو لنا ان الدكتور عبد المجيد عابدين ، لا يميل الى ذلك الرأي ، في كتابه الرائد : « تاريخ الثقافة العربية في السودان ـ الطبعة الاولى ـ ١٩٥٣ » . اذ انه ينسب فصول الادب السوداني الفصيح الى المؤرخ محمد عبد الرحيم . وان لم يغب عن الناقد المحقق الكبير . ان هذه الفصول الاخيرة تختلف عن الفصول الاولى من ناحية العرض والدراسة ، وان اسلوبها « اسلوب راق بين الاساليب العربية ، ومن اهم ميزاته تدفع عباراته من قوة وهدوء ووضوح .

ولا يخلو اسلوبه كذلك من موازنة تختلط بالعبارة المرسلة » .

مهما يكن من أمر ، وسواء أكان كاتب تلك الفصول هو التجاني ام محمد عبد الرحيم ، فان تعليق الدكتور عابدين يمتاز بالموضوعية والدقة ، اذ يقول في ص ٣٣٩ :

(وبعد الفراغ من دراسة الادب الشعبي الدارج ينتقل الناقد السوداني الى فصول الادب السوداني الفصيح فتختلف طريقة العرض والدراسة ، اذ يكتفي هنا باستعراض نماذج من قصائد الشعراء مع نبذة تاريخية قصيرة عن حياة الشاعر وشخصيته . وفنه احيانا . غير انه في هذه الفصول لا يحلل شيئا من الشعر كما حلل

في الفصول السابقة ، ولا يتعرض بالنقد كما تعرض من ابيات الشعر الدارج .

على اننا لا نعدم تعليقات لها قيمتها في هذا القسم من الكتاب ، كأن يعلق على قصيدة لعبد الغني السلاوي فيصفها بأنها (الى شعر الفقهاء أقرب) . ويؤرخ حياة العباسي الشاعر فيقول : « وانا اذ اقرأ له يخيل الي من فرط ما ألمس من مشابه بينه وبين فحول الشعراء اني أقرأ لشاعر وشاعر مجيد من شعراء القرن الثالث الهجري يوم انصقلت الاساليب الشعرية ويوم صعدت بها صناعة المولدين الى مستوى كل موسيقي وسحر وفتون » .

وبعد ان يستعرض من (٧٦ ــ ٢٠١) نماذج من الشعر السوداني الذي يلمح فيه خصائص تقليدية واضحة ينتقل من ٢٠١ الى ٢٣٣ ليسرد لنا نماذج من الشعر يرى فيها أو في معظمها ما يمثل اتجاها جديدا فيروي شعرا لعبد القادر ابراهيم ومحمد سيد احمد وعبد الغني مرسال وحسن نجيله والتجاني يوسف بشير .

وهو يصف هذا النوع من الشعر بقوله :

« ولهذا النوع من الشعر انصاره الكثيرون الذين يروجون له ، ويدعون اليه ، وهو يتطلب نفوسا غريبة الوضع غريبة التكوين مزودة بنوع خاص من الاعصاب مهيأة الى تلقي الآثار الخارجية بقدر محدود . وفي الغرب تقوم دولة هذا الشعر الطيفي على ارسخ أعمدة من الالفة والاعتياد) .

مقالات « كشف الستار » :

رغم تواتر الرواية على ان سبب فصل التجاني من المعهد ، هو ما تفوه به أثناء مناقشته مع بعض زملائه فيما يتعلق بأفضلية شعر شوقي على حافظ ، على ما سبق ذكره في الفصل الثالث ،

ونظرا الى الاثر العميق في نفسية التجاني ، الذي ترتب على فصله وعدم مواصلته لدراسته ، على ما وردت الاشارة اليه في اكثر من موضع ، فقد بدا لي انه من الجائز ان تكون ثمة أسباب خفية دفعت شيخ المعهد وقتئذ المغفور له احمد ابو دقن ، الى فصل احد تلاميذه ، وقد كان له من ثقافته الدينية والفقهية ما يحول دون التسرع في الامور ، بل تقليبها على جميع اوجهها ، والاهتداء باصول وقواعد الاثبات في جميع القضايا ، سواء أكانت منطقية أو ادارية او قضائية او شرعية ، لذلك ، لما قرأت مقالين بعنوان « كشف الستار » في العددين ٢١و٢٣ بمجلة النهضة السودانية ـ اذ لم اعثر على العدد ٢٢ ويبدو ان المقال الرابع لم يتح له النشر لشدة ما لقيته المقالات من نقد ـ خيل الي انني وضعت يدي على سبب فصل شاعرنا من المعهد .

والاسباب التي اعتمد عليها في الادعاء بان المقالين المذكورين هما بقلم التجاني ، تتلخص فيما يلي :

١ ـ رغم ان المقال غير موقع عليه باسم معين الا ان كاتبه وقع بالحرف أ ... وهو اول اسم الشاعر (أحمد التجاني) .

٢ ـ لقد دأب التجاني على نشر بعض قصائده دون توقيع ومن بينها القصيدة التي مطلعها (لم لا يغذينا الهوى بلبانه) وقصيدة « الروح » ، على ما سبق ان رأينا في الفصل الثاني ، ولذلك ليس من المستبعد ان يكون التجاني قد مال الى الكتابة نثرا دون توقيع اسمه كاملا .

ومما يؤكد ذلك أيضا ، ان التجاني ، قد نشر بعض قصائده في مجلة ام درمان عام ١٩٣٦ ، دون ان يوقع اسمه عليها ، حتى بالحرف الاول منه ، وكان وقتئذ شاعرا طائر الصيت .

٣ ـ ان اسلوب المقالين يشابه الى حد كبير اسلوب نثر التجاني .

على ما سنفصله فيما بعد ، وعلى ما يبين من منتخبات نثره أيضا

٤ ــ كان التجاني في عام ١٩٣٢ لا يزال طالبا بالمعهد ، فهو ، والحال هذه ، لم يكن في موقف من يمكن له توجب هجوم عنيف مباشر على بعض اساتذته. لان ذكر اسمه كان يعني مواجهة مزيد من المتاعب والمشاكل بالنسبة له ، مما جعله مترددا في الكتابة المرة بعد الاخرى .

هذا من ناحية، ولان التجاني كان يعمل بمجلة «ملتقى النهرين» التي كان بينها وبين « النهضة السودانية » منافسة خفية ، لم تكن لديه الحرية الكاملة في الكتابة ، ولذلك لربما استشعر بان الكتابة في مجلة ادبية اخرى ، قد يعني تشجيعا لصحيفة منافسة . ومن ثمة كان من الطبيعي ــ على ما اعتقد ــ أن ينشر في النهضة نثرا أو شعرا ــ دون ذكر اسمه ــ اذ انه لم يترك مجلة في عصره دون ان يكتب فيها .

واذا اخذنا في الاعتبار ان زميليه عبد الوهاب محمد القاضي والهادي العمرابي ، كانا يلقمان تلك المجلة بمقالاتهما وقصائدهما ، وان المنافسة الحادة التي كانت بينهم ، دفعت كلا منهم للادلاء بنثره وشعره في كل معترك صحفي أو أدبي ، وان التجاني لم يكن ممن يقبلون ترك المجال دون نزال ، فان من الطبيعي ، والحال هذه ، ان ألقي بدلوه من الدلاء .

٥ ــ ولان ما جاء في « كشف الستار » ، قد يعتبر ردا على مقال كتبه الشيخ أحمد ابو دقن ، في مجلة النهضة (العدد ٦ بتاريخ ٨ــ١١ــ١٩٣١) ، وجاء فيه :

(.. فاننا نؤمل خيرا متى كانت هذه النهضة نهضة افعال لا أقوال نهضة ايمان لا الحاد ..

اطلعت على العدد الاول من مجلة النهضة السودانية فتجاذبني

عاملان عامل السرور لخروجها من حيز القول الى الفعل ..

أما العامل الثاني فلا شك ان عامل حزن نشأ اولا من وضع حجر اساس هذه النهضة على التفرق بين من سموا انفسهم بالشباب الناهض واطلقوا على غيرهم من افراد الامة الشيب أو الناهضين والرجعيين والى غير ذلك مما كنت اسجع به ولم اتحقق وجوده الا من اول عدد في النهضة السودانية يحوك في صدور الشباب وتلوكه السنتهم وتمضغه افواههم والنهضة لا تكون بافراد يحصرهم العد ويحيط بهم الحد بين مجموع الامة ..)

٦ ـ ولان ما انطوى عليه المقالان ، يعبر عن آراء مماثلة تماما لآراء التجاني وعن عواطف كانت تحتدم في نفسه ، اذ يتلخص مقاله الاول فيما يأخذه على بعض العلماء من انتصار لكل قديم بال « فمن آراء التفكير الحر أو حتى الشبيه بالحر عدوه ملحدا ومن ناقشهم فكرة أو أبدى لهم رأيا قالوا عنه « انه قليل أدب »، ويتلخص مقاله الثالث في الهجوم على سلوك التلميذ الخامل الذي يخضع لآراء معلميه « كأنما هو في حضرة انبياء مرسلين لا بشر مثله يخطئون ويصيبون .. » ثم يشيد بموقف الشاب المتطلع للحياة الراغب في تغييرها وتطويرها المتمسك بمثل واهداف يرغب في تحقيقها ، وكأني بالتجاني كان يعني نفسه .

وعلى هذا ، فان كان ما انتهينا اليه من قول ، بان المقالين المذكورين هما للتجاني ، دون غيره ، ردا على الشيخ أحمد ابو دقن ، وانهما اثارا نقدا شديدا لدى الكتاب الآخرين مثل المرحوم احمد يوسف هاشم ، بل لم يعدم نقد محمد عرفات عن الله نفسه ، فاننا نستطيع ان ندرك لماذا اندفع المغفور له احمد ابو دقن لدى تحقيقه مع التجاني بمناسبة تفضيله شعر شوقي على حافظ ،

الى قرار فصله . وقذف به بعيدا عن رحاب المعهد، والى بحر الحياة اللجي المتلاطم الامواج .

ولذلك كله ، فاننا نرى ان نثر التجاني يحتاج الى عناء للبحث عنه ، في المجلات ، والجرائد القديمة . لانه لم يكن يوقع باسمه ، في كل مقالة يكتبها .

ثانيا : نثر ملتزم :

اذا كان الالتزام في الادب يعني ان يكون للكاتب أو الشاعر رأي واضح ومحدد في المشكلة التي يعرضها في المقالة أو القصة أو المسرحية أو القصيدة ، فاننا نميل الى القول بأنه كان يتعذر الالتزام وقتئذ على الاديب أو السياسي ، نظرا الى ان الاتجاهات الادبية والسياسية لم تكن واضحة او محددة في اذهان الكتاب أو الناس ، ولان الاستعمار كان قد سلط قنابله ورصاصه ، على ثوار بلادنا عام ١٩٢٤ ، وسجن ونفي وشرد مئات المناضلين ، الذين لم يجدوا سبيلا للرزق الا بشق الانفس ، بل لم يكن المناخ العلمي والثقافي مناسبا لتمديدها ، بحيث يصعب على الباحث الحكم على أديب أو شاعر معين بالتزامه بمذهب أدبي أو سياسي أو فلسفي .

وليس معنى ذلك ان الادب لدينا كان يدور في فراغ ، أو انه كان من غير هدف ، أو انه كان بعيدا عن مشاكل المجتمع الاقتصادية والسياسية . بل ان الادب وقتئذ كان تعبيرا في الواقع من الامر على رفض المجتمع القديم ، ومعارضة للاوضاع البالية السائدة ، وحربا ضد الاستعمار نفسه ، ورغبة في تغيير ظروف المجتمع بغرض تحقيق كثير من مظاهر التقدم والاصلاح والتطوير ، وبعبارة اخرى ان الادب كان يمثل في الاربعينات ، وجه الفلسفة

اليسارية وفق المفهوم الحديث . وكان لسان القوى الثورية للشعب المناضل .

ولكن لما كان التعليم الذي يتلقاه الفرد تعليما يعتمد على الادب من ناحية ، وعلى الدين من ناحية اخرى ، فقد كان من الطبيعي ان يترسم الاديب خطى الادباء القدامى وينهل من ينابيع الفلسفة القديمة ، ويميل بالتالي ، الى الافكار المجردة . ومن ثمة كثرت المذاهب والحلول التي ينادي بها كل ناثر أو شاعر . وكان يخيل لكل واحد منهم انه يمكن الاصلاح اذا نادينا بالتمسك بالاخلاق أو بنشر التعليم أو الاهتمام بالصحافة أو اصلاح الزراعة أو تطوير الصناعة أو حرمان الاجانب من التجارة أو اصلاح الحكم المحلي مثلا ، ولكن انطوت آراء كل منهم على المثالية .

لذلك كله . كان من الطبيعي ان يكون التجاني مثاليا في تفكيره . وان يصطبغ نثره بالنزعة المثالية مثل غيره من رواد النهضة الفكرية في السودان .

ويقول الدكتور عابدين في كتابه « تاريخ الثقافة العربية في السودان » في هذا المعنى ، في صفحة ١٦٣ :

(ظهرت النزعة المثالية في كتابات الجيل الماضي . فاكثروا من التحدث . كما عند عرفات ومحجوب ومحمد عشري وعبدالله عشري ، عن الحق والخير والجمال ، وعرفوا الناس بهذه المثل . ودفعهم عدم الرضا بالحياة السودانية المادية . حينئذ الى ان يلجؤا في بيان عيوب التعلق بالمادة والشره على حكام الدنيا ..

ولم تقف الدعوة الاصلاحية عندما سبق ذكره . بل عنوا بابراز الصفات الخلقية السودانية وتصويرها بخيرها وشرها . حتى يتمسك الناس بالحسن المقبول منها . كما بينوا لهم مثلا عليا .. واعتزوا بالاخلاق العربية ، وشادوا بها كالكرم والمروءة

والنجدة . ومراعاة الجار واحترام العرض ..

على ان الرواد لم يترددوا في ابراز العيوب والدعوة الى التخلي عنها ..)

ولم يذكر الدكتور عابدين اسم التجاني من بين الرواد. ولكنني أرى ان التجاني كان احد اوائل الرواد ، ذلك لانه كان يمتلك المقدرة على التعبير عن المشاكل الاجتماعية والادبية نثرا و شعرا ، ولانه شارك بمقالاته الادبية في كل صحيفة او مجلة صدرت اثناء حياته ، بل كان من أوائل من يحتفون بصدور المجلات في عصره ، ولانه دأب على جمع نماذج من أشعار معاصريه . لكي يضمها كتاب واحد ، دون ان يأبه ان نسب اليه أو الى غيره ، على ما سبق ذكره .

ولان التجاني كان جادا الى أبعد حدود الجد، فمنذ عهد الدراسة، وهو يدبج المقالات للصحف ، وينشر شعره في المجلات . على ما سبق شرحه في هذا الفصل والفصول السابقة. ولان القضايا التي اهتم بها التجاني ، هي القضايا التي اهتم بها معاصروه من الرواد الاوائل .

ويكشف مقال التجاني (والقيادة الفكرية) ، عن وعيه بمعنى الالتزام بمذهب معين ، اذ نعى على المثقفين في بلادنا. عدم ايمانهم القوي بمذهب من المذاهب الفلسفية أو الادبية ، الى الدرجة التي يكرسون فيها حياتهم في سبيل الترويج له بين افراد الشعب . بهدف تطوير حياتنا الى أفضل . ويؤكد المهمة الملقاة على المثقف الملتزم حين يقول عام ١٩٣٦ :

(والكاتب ان لم يغن في الحياة ويدن الى الامة فيما يحمل لها من صور وآراء ويضع فيها نفوذه الشخصي وايمانه وحريته ودم قلبه وآثار روحه في صدق النبيين واخلاص المجاهدين قاصرا كل

قواه على ان يثير فيها من الشؤون والافكار ما هي مؤمنة لا محالة ، عاملة له من غير تردد ، فانه لن يكون في انتاجه الا منسيا ضائعا ابدا مستنفدا جهده في غير طائل من ذكرى أو أثر .

ورغم التشاؤم الذي يحمله مقاله ، الا انه اختتمه بروح عميق من التفاؤل ، اذ يقول :

(ولكن مع هذا ، فلا بد لنا من قيادة فكرية محلية ترفع فينا الحياة وتبعث فينا القوة وتروضنا على حرية الفكر وتسلك بنا في حياة ادبية رافهة الصور مملوءة بالسحر والفتنة والجمال .)

ولم يكن الشعور بالالتزام جديدا على التجاني ، بل انه أحس به ، منذ بلوغ رشده ، ذلك لانه كتب مقالا في ٢٢ـ٢ـ١٩٣١ . بعنوان « الادب والفن عندنا » ، جاء فيه : (على ان الاديب من استطاع ان ينظر الى الحياة بعين المتعبر الواقف على دقائقها ومشكلاتها . أجل هو الذي ينظر اليها بعين العلم وتنظر اليه بعين الاجلال .

هذا هو الاديب حقا . أما الحقيقة الناصعة فان الادب عندنا متأخرا جدا ..)

ولا يعني الشعور بالتأخر أو القلق أو التمرد أو الثورة التي يكون للانسان نزعة مدمرة ، بل يعني مثل ذلك الشعور في كثير من الاحيان بان للانسان نزعة ثورية لتغيير الاوضاع أي الى تغيير حياة الناس ـ وحياته ـ الى أفضل .

واذا استقر في اذهاننا ان وجدان التجاني كان اجتماعيا ، وان شعره مثل نثره يعبر عن تمرده وثورته على كثير من الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والادبية والسياسية ، فانه يمكن القول بان التجاني كان اديباملتزما وفق المعنى العام للالتزام ان المعنى الذي يفصل بين الانسان الذي يقف في مسار او تيار اليسار اي

التقدم وتغيير الحياة والعمل لصالح الجماعة والقضاء على استغلال الانسان للانسان . وبين من يقف بجانب اليمين الى الجانب المحافظ على الاوضاع القائمة دون رغبة في تغيير او اصلاح جوهري أو جذري.

واذا اخذنا في الاعتبار صعوبة الالتزام حتى في النصف الثاني للقرن العشرين ، اذ لم ينقسم العالم الى نظام رأسمال من ناحية ، ونظام شيوعي من ناحية اخرى فحسب ، بل سادة كل نظام من النظامية الرئيسية فلسفات ومذاهب شتى ، واكثر من ذلك سار وجه العالم كتلة ثالثة ذات خصائص مميزة الى حد ما ، وقد بدأت النظريات والمذاهب فيها تتصارع وتتعارك بعد ان قطعت شوطا لا بأس به في ممارسة الاشتراكية، ولذلك، فان المواطن في السودان، وفي البلاد العربية ، لا يضع قدميه على ارض فكرية صلبة أو واضحة ، كما لا يجد أمامه نظرية واضحة محددة ، ومن ثمة نجد كثيرا من الاتجاهات والمذاهب والبرامج الحزبية ، كلا منها يدعي الاشتراكية او الديمقراطية ، ولكن نظرا للتعميم الذي يسود صياغتها ، وعدم تحديد الطرق العملية لممارسة الاشتراكية، فان المواطن يجد نفسه في حيرة شديدة بل في قلق يكاد يماثل قلق ابناء النصف الاول من القرن العشرين .

ولكن ثمة فارق هام بيننا وبينهم ، اذ بينما كان رفض المجتمع القديم والثورة عليه والعمل على طرد الاستعمار يعتبر التزاما وايجابية من جانب المواطن ، الا ان ذلك كله لا يكفي للالتزام في الوقت الحاضر ، بل يتوجب على الانسان ان يكون له موقف محدد ايجابي من مشاكل وطنه بل مشاكل عصره جميعها ، بشرط ان يقصد بذلك تغيير مجتمعه بل تغيير العالم الى افضل ، وبشرط ان يهدف للقضاء على استغلال الانسان للانسان . ولا يكون ذلك الا عن طريق اتباع وسيادة الملكية العامة للاشياء ، والقضاء على

النظام الرأسمالي، وتخطيط الاقتصاد الوطني تخطيطا اشتراكيا.

ثالثا : دلالة نثره :

لنثر التجاني دلالات ثقافية واجتماعية .

ويدل نثر التجاني على ايمانه العميق في أثر الثقافة على تطوير بني البشر وتغيير المجتمع .

وكان ذلك الايمان هو الواقع الاول ـ في نظري ـ الذي جعله يتمسك بالكتاب في امهات المجلات تطوعا ، ودون مقابل . بل ان ما كان يكتبه في الجريدة التجارية وملتقى النهرين ثم من النيل ، لم يكن مما يتقاضى عنه أجرا ، لان عمله الرئيسي هو التصحيح فحسب ، على ما سبق ذكره مرارا .

ولذلك فان سلوك التجاني . منذ بلوغه الرشد . يثبت خصب حياته وايناعها ، ويؤكد انه كان رجلا جادا هادفا . وانه لم يكن يندفع وراء الاصلاح لمنفعة ذاتية . بل كان يرغب في ان يعم النفع كل مواطنيه .

ورغم ان مقاله « الصحافة » (ملتقى النهرين ـ العدد ١٧٧ ـ ٢ ـ٨ـ ٣١) يكاد يشبه مناجاة مصطفى كامل لمحبوبته مصر. تلك المناجاة القلبية الغنائية ، الا انه انطوى على فقرات هادفة ، اذ يقول :

« فللصحافة اليد الطولى في تغيير مجرى الحياة ومجريات الحوادث والافعال ولها اكبر الاثر في حياتنا الحاضرة .

ويدل بحثه « في المستوى الشعري للامم (الفجر ـ العدد) على المام واسع بآفاق الشعر في كل بلد عربي ، وعلى اطلاع جم على اكثر ما ترجم من اشعار الغرب ، كما يدل على ملاحظاته الدقيقة

للتفرقة بين الاتجاهات الشعرية العامة بين الامم المختلفة ، كما يدل بحثه « البدر والزهر فى الشعر العربي (ام درمان ــ العدد) ، على تذوقه واستيعابه للشعر العربــي ، فى مختلف عصوره ، ولشعر الطبيعــة بوجه خاص ، كما يثبت مقدرته عــلى رواية الشعر ، اذ اقتطف في ذلك المقال ، بعض اشعار ابن المعتز وعلي بن الجهم وابي الفضل المكيالي وابن هاني ، وهو يكتب على ضوء القمر ، دون الرجوع الى ديوان او كتاب ، على ما يبين من سياق الحديث .

ورغم ان مقالاته « حول رواية مجنون ليلى » (الجريدة التجارية ــ العدد ١٥٩) ، لا تنطوي على نقد جوهري للرواية الا انها تدل على مدى اهتمامه واستيعابه لجميع وقائعها ، وانفعاله واعجابه بها ، كما تنهض دليلا على شجاعته الادبية ، اذ لم يخش ان يجاهــر بالنقد، وان بدا عليه التردد في اول الامر. ولنثره دلالات اجتماعية أيضا .

فلقد هدف في مقاله « المعهد العلمي » (ام درمان ــ العدد ٣) الى الدعوة الى كتابة تاريخ للمعهد العلمى بصفة خاصة ، ولتاريخ السودان بصفة عامة .

ويدل مقاله « الادب والفن عندنا » (الجريدة التجارية ــ العدد ١٥٥) على رغبته في تطوير الآداب وفن الغناء لدينا ، كما يدل التعليق الذي نشره بمناسبة تشجيع التمثيل في السودان ، لدى قيام فرقة « فريق العمدة » بتمثيل رواية « فتاة المستقبل » عام ١٩٣٦ ، لمؤلفها الاستاذ حامد احمد سليمان ، على رأيه التقدمي، وتقديره لاثر التمثيل في النهضة وتربية النشء ، والدعوة الى تعليم الفتاة بجانب الفتى .

وينهض مقاله القصير عن « سلحفاة شركة النور » دليلا على

اهتمامه بشكاوى الجماعة ، وعلى ايمانه بوجوب مطالبة الفرد بحقوقه ، اذ يقول فيه :

(فالى متى نحن صامتون على هذا ايها الناس !

افليس ثمة من عمل حاسم ترغم به هذه الشركة على أن تعدل من خطتها هذه وتعنى براحة هؤلاء الركاب الذين لا يغادر الواحد منهم الترامواي الا بعد ان يلعنه في نفسه الف لعنة .

على ان هذه الراحة هي حق من حقوقهم التي يجب أن تتوفر لهم فاذا غمطتهم الشركة هذا الحق ، فلانها تستغل حاجة الناس واضطرارهم اليها في الغالب. والمضطر كما يقولون يركب الصعب».

لكل هذا ، نرى أنه نظرا لقصر عمر التجاني ، ولاهتمامه البالغ بشعره ، لم يجد التجاني متسعا من الوقت أو الراحة للقيام بدراسات عميقة سواء في المجال الادبي او الاجتماعي ، ولكنا اذا نظرنا الى المواضيع التي تناولها ومحاولاته التعبير عن آراء عامة في بعض مشاكلنا الاجتماعية ، لتبين لنا انه كان في نثره هادفا ومناضلا ومجددا . وليس مما يقلل من شأن ابحاث التجاني ومقالاته ، انها كانت موضع خلاف بينه وبين بعض معاصريه ، كما لا يقلل من شأنها ان تكون على خلاف بعض الآراء السائدة في النصف الثاني من القرن العشرين، بل لعله مما يذكر له بالفخر ان بعض مقالاته كانت ولا تزال تثير النقاد الذين عاصروه والنقاد المحدثين أيضا .

رابعا : أسلوبه :

اسلوب التجاني في النثر اسلوب رصين واضح قوي ، بل انه يبلغ حدا فائقا من الجمال في بعض الاحيان ، كما يتضح ذلك في مقال « القيادة الفكرية » .

ولم يلجأ التجاني الى الاسلوب المسموع . بل كان يرسل نفسه على سجيتها ، دون قيد أو التزام .

وكان للتجاني مقدرة فائقة في الاستشهاد بالشعر في سياق الحديث ، وببعض مأثور الكلام من نثر او شعر ، وهي طريقة لم يتفرد بها ، بل كانت عامة بين معاصريه نتيجة تأثرهم بالثقافة العربية القديمة ، وتأثرهم ايضا بكتابات أشهر ادبـاء مصر ولبنان ، مثل طه حسين والمازني والرافعي والمنفلوطي وجبـران ونعيمه واسماعيل مظهر وسلامه موسى وغيرهم .

ولذلك ، فان نثره يدل على سعة ثروته اللغوية ، مثلما يدل على ذلك شعره ، وان كـان كلا منهما لم يخل مـن غريب اللفظ والعبارة .

وحيث ان من المسلم به ، ان لكل ناثر أو شاعـر اسلوبه في الكتابة أو النظم .

لذلك ، اذا نظرنا الى معاصريه وطرائقهم في الكتابة ، فاننا نرى ان التجاني كان ذا اسلوب بليغ ، مثل اساليب المغفور لهم عرفات محمد عبدالله وابي بكر محمد عليم واسماعيل فوزي ومحمد عباس ابو الريش ، والهادي عثمان العمرابي وعبد الوهاب محمد القاضي . كما يشابه اساليب عبدالله عشري الصديـق ومحمد الصديق والمبارك ابراهيم ومحمد احمد محجوب ويحيى عبـد القادر ويوسف المأمون وخضر محمد ويحيـى الفضلي ويوسف ابراهيم النور .

ونحن نأمل من نشر منتخبات نثره ، ان تكون دافعا للادبـاء لدراسته دراسة وافية ، والعمل على جمع ونشر النثر والشعر المغمور للرواد، اذ لا بد ان يشق مثل ذلك الادب طريقه الى النور، لكي يكون تراثا لابناء هذا الجيل والاجيال القادمة .

الفصل الثاني عشر

منتخبات من نثره

الادب والفن عندنا

(نشر بالجريدة التجارية في العدد ١٥٥ ـ السنـة الثالثة في ٢٢ـ٢ـ١٩٣١) .

يكاد ينحصر الادب عندنا في الكتابة وانشاء المقالات التي لا جديد فيها غير تنميق الالفاظ والنعي على حاضر البلاد ومستقبلها واذا فحصت المراد منها خرجت من مقدماتها بغير نتيجة تفيـد القراء لا في الاجتماع ولا في الاخلاق ولا في الاصلاح النفسي ومثل ذلك كل من يقرض الشعر الغير الناضج .

فلا تكاد ترى روح الشاعرية التي تعبر عن الاحساس الدقيق وتمثل العواطف المستكنة في روح الشاعر فضلا عن خلوه مـن المعاني التي تحوي شيئا من الجديد غير المطروق وانما هو خيال بارد والفاظ متنافرة هي الى التقليد اشبه منها بالمبتكر ومع ذلك يظن نفسه اديبا وشاعرا محلقا .

على ان الاديب من استطاع ان ينظر الى الحيـاة بعين المتبصر الواقف على وقائعها ومشكلاتها اجل هو الذي ينظر اليها بعين العلم وتنظر اليه بعين الاجلال هذا هو الاديب حقا اما الحقيقة الناصعة فان الادب عندنا متأخر كثيرا ولا يؤاخذنا الشعراء والكتاب الذين اوقفوا انفسهم على النثر والشعر في تلك المواضيع غير المجدية التي لا تشرئب اليها النفوس المتطلعة الى المدنية الحديثة والظامئة

الى مناهل الادب الراقي واذن فالادب عندنا لم يتقدم الى الامام كما تقدم في البلاد الاخرى واما الفن فلسنا منه في شيء البتة ولكن الى اي شيء نعزوا تأخرنا ؟

ألى عدم صلاحيتنا لتلقي الادب والفن ام الى عدم صلاحية بلادنا من ان نكون ادباء نابغين وفنانين ماهرين كما كونت البلاد الناهضة .

ونستطيع ان نرجع هذا التأخر الى عدم تشاغلنا بهما والسعي وراء ما يرقي افكارنا ولا اقول متشائما ان السبب عدم صلاحيتنا لاننا معشر السودانيين لسنا بقاصري الافهام والمدارك كما اننا لسنا بالامة الجامدة التي تابى الطبيعة منحها ما منحت به سواها وانما يعوزنا الاقدام والمثابرة على الاقتباس والاخذ بكل ما هو جديد ممتع ولذيذ ولدينا من الوسائل الكثيرة ما يحقق آمالنا .

هنا يقف الانسان حائرا ويذهب به التفكير كل مذهبه ثم يعود وليس معه الا ان ينادي بان هبوا معاشر السودانيين ودعوا ما انتم عليه من تواكل حتى تنهضوا ببلادكم الى المستوى الاعلى من الآداب والفنون كما تحتفظ جاراتكم من البلاد بكمية صالحة من رجال الادب والفن النابغين .

اما اغانيكم التي ملأتم بها اسطواناتكم فانها جوفاء بعيدة كل البعد عن اغاني الامم الحية ومثلها صنائعكم كالاطباق التي تصبغونها بالطلاء و (كالجبنات) التي ترصعونها بالسمك (السكسك) وكالاحذية والمحافظ الجلد المنقوشة بتلك النقوش البسيطة التي لا يعز على قليل الادراك عملها وقس على ذلك اغلب مصنوعاتكم التافهة التي أقمتم لها المعرض كأنها من الفنون الجميلة ؟

ولا أنسى ذلك اليوم يوم المعرض ولا أنسى ما فيه من خرافات

القرون البائـدة ممثلة فيه بسذاجتنـا وبلاهتنا وقصر ذوقنـا الفني ؟؟

واذا اعدنا الكرة في الكلام على توقيع اغانيكم والحانها لا نجد ما نمدحها به غير الضجة والنبرات الجافة ولحن الاعراب في ابياتها الموضوعة باللغة الدارجة التي لا يفهمها الا عوامنا .

ولا أجد لهذه الفوضى الا اننا اهملنا هذا الفن الى من لا يحسن اجادته من الذين لم يهذبهم العلم وبالطبع لم يكن لهم المام بالحان الغناء وتوقيعاته الموسيقيةالتي تأخذ بالنفوس بدلا منتصديعها ولقد كانت اسلافنا العرب تنشىء الاغاني ولكنها فيقالبمن بلاغة العربية وتراكيبها واوزانها واما مغنيوا بلادنا فهم طائفة منعشاق الرقص والخلاعة التي مضى عليها مئات السنين لم تتقدم خطوة من الرقي الى الامام وليس ثمة من كتب يرجعون اليها ويسيرون على اسلوب تعاليمها والشيء اذا لم يكن له أساس كان حليف الفوضى والاضطراب فهل يفطن مواطنونا الكرام الى تنظيم تلك الاغاني على طريقة ترفع مستواها ؟

اني لا اعرف استاذا من الطبقة التي تغار على هذا الفن وكثيرا ما سعى الى تهذيبه وله في ذلك القصائد الجمة التي لا تقل عن الشعر العربي متانة ورقة مصبوبة في قالب من اللفظ العربي الصحيح المبني على السهل الممتع ولا ابخل عليك سيدى القارىء بذكر اسمه كما اني لا اخالك تجهل الاستاذ حسين منصور .

وفي الختام اضرع الى متعلمي الوطن ان يكونوا كلهم يدا عاملة في رفع بلادهم الى مصاف البلاد الراقية وانزالها المحل اللائق بها من الفنون والآداب والذوق الانشائي والشعري حتى نصبح امة ولها مكانة من آدابها وفنونها .

حول رواية « مجنون ليلى »

(١)

(نشر بالجريدة التجارية بالعدد ١٥٩ في ٢٣ ـ ٣ ـ ١٩٣١)

لم يكن الادب العربي منذ بدء عصره الاول حتى عصرنا هذا الا ثوبا فضفاضا تخطر فيه العربية ولكنه ـ ويا للاسف ـ خال من كل وشي وتنميق : ولم يكن الا ذلك الثوب الذي ابدع في حياكته الاقدمون بفضل مالهم من قدرة على ذلك .

بيد انهم لم يعملوا فيه يد الفن ولم يرسموا عليه صورة الجمال .

واستمرت العربية تخطر في ثوبها هذا زمنا لا يقل عن خمسة عشر قرنا حتى حان وقت تنميقه ووشيه .

وحتى اتاحت لها الظروف من يقوم بهذا العمل الجليل ويمسك بثوبها الضافي ليضع فيه وحيا الفن والذوق السليم .

انها لظروف حسنة تلك التي قيضت لها من يحس بحاجتها الى مظهر يكون له فعله بعواطف الانسان . الى مظهر لو قدر للعربية ان تظهر به يوما ما لما انصرف اكثر ابنائها الى الادب الغربي ولما استعذبوا مورده ومرعاه بينما يسيل ماؤها عذبا رقراقا نميرا .

ويبدو نباتها مجتثلا اخضر تنضوا عليه الطبيعة كل ما لديها من جمال وبهاء .

اقول انها لظروف حسنة تلك التي اهابت بأمير الشعراء ان

اقبض بيراعك وضع زهرة تلو اخرى من ذلك الثوب حتى لا يبقى ثم من فراق .

ولم يلبث أمير الشعراء الا ان هب وامسك بيراعه حتى اخرج الزهرة الاولى على ذلك النمط الغربي اللذيذ تلك هي رواية «مصرع كليوباترة » وحتى اتبعها بشقيقة لها ربما حلت الصدر من ذلك الثوب البديع .

وتلك هي رواية « مجنون ليلى » وحسب القارىء وصفا لمبلغ هذه الرواية من الاهمية ذلك العنوان الذي يكاد يكون ناطقا بكل ما كان بين هذين الحبيبين من حب وغرام اقصى ما استطاع ان يفعله بهما هو الموت من طريق البعد والاقصاء .

بعد ان فعل ما فعل بقيس وجر ما جر لليلى ... وكم يكون المؤلف مبدعا في هذه الرواية بل في هذه الفاجعة الغرامية .

وكم يكون فنانا في ترتيبها الذي اوشك ان يكون سماويا لم تتحكم فيه يد البشر .

وما من احد الا ويدين بما لشوقي من قدرة على تصوير العاطفة الغرامية في ارحم ثوب واقساه وكان شعاعا الهيا قد اتصل به حتى جاء بما ليس للبشر اليه من سبيل .

انظر اليه وهو يمثل الحب في ابهى ثوب تهيمن عليه القداسة والجلال في قول ليلى :

يعلم الله وحده ما لقيس	من هوى في جوانحي مستكن
انني في الهوى وقيس سواء	دن قيس من الصبابة دني
انا بين اثنتين كلتاهما النا	ر فلا تلمني ولكن اعني

حول رواية مجنون ليلى

(٣)

(نشر بالجريدة التجارية)

اراني حينما اقف امام « شوقي » لآخذ عليه بعض ما يقوله لكالذي يتطاول ما يقصر عنه المتناول .

وما كان لي ان اقول لولا منزلة « شوقي » من قلـوب الناس وموقع شخصيته من افئدتهم اجمعين .

ولكن وانا اعلم ان للحقائق وانصافها قوما لم يذهبوا بعد . فلست ابالي ما دمت مصيبا في قولـي وها أنذا ابدي ملاحظـة « ليست بالتاريخية » وارى انه لا حرج علي في ابدائها ما دمت معجبا بهذه الرواية وما دامت هي الاخرى جديرة بالاعجاب .

وقد ترى معي يا سيدى القارىء انها ليست بالملاحظة التـي تنقص من قدر هذه الرواية ولا التي تسلبها ما حازته من قبول واعجاب . الا انها في جانب كبير من الاهمية . لان المؤلف باعتباره مؤلفا روائيا لا شاعرا فحسب ، كان عليه ان يلاحظ كل موضع دقيق من هذه الرواية فيلبسه ثوبا ملائما له. فضلا عن ان يسترعي انتباه السامع ويقف به على دقة الصنع والابداع .

ينتقل بنا المشهد « حول ديار بني ثقيف في قرية من قرى الجن حيث اجتمعت طائفة للحفـاوة بقيس وهو يهيم على وجهـه في الفلوات ــ وبينهم شاب في شكل انسي جميل، وهو الاموي شيطان قيس ــ والجميع ينشدون ويرقصون . وبعد نشيد طويل يسأل بعضهم بعضا « فيم اجتمعنا ههنا » والى ماذا جئنا وماذا نريد .

واذ ذاك يجيبهم الاموي شعرا :

بني الجن في ارضكم عابـر من الانس يرفل في ضره
فغالوا بـه واعلموا انه فتى نبـه الشعر من قدره

واننا لو سقنا المشهد من اوله الى تلك الفقرة لاقتضى ذلك منا تطويلا ونحن احوج الى الاختصار . وكل ما في الامر هو انهم لبثوا مكانهم حتى ظهر لهم قيس « يدحرجه الفضاء » ولم يكن منهم الا ان التفوا حوله منشدين :

سلام ملك الحب وسلطان المحبين

وهنا يتلفت قيس يمنة ويسرة وقد اخذ به الوهم كل مأخذ : (رب الى اين انتهت بي السرى وهذه المسوخ حوله جنة ام عمل الوهم وتهويل الكرى غير انه لا يلبث ان يتحقق انهم جن : (تلك من الجن لعمري شرذمة) وحينما يرى الجن ان الرعب قد نفذ الى قلبه يهدونه بقولهم :

نبي الحب لا تخشى اذى او ترة منا

وبعد ذلك يأخذ الاموي في شعره يضمن بيتين لقيس لم يكن فاه بهما قط .

بل لم ينبس منهما بكلمة واحدة حتى يسمعها غيره .

وانما قالهما واحتفظ بهما في ضميره ودونك الابيات مضمنا فيها بيتا قيس :

تركت ورائي الشام لم احفل بـه
ولا هو من شوقي القديم شفاني
وعدنـا الى نجد اقاسي صبابتي
ووجدي كانـي مـا برحت مكاني
تركتك ليـلى فانفجرت لياليـا
مؤلفـة الاشكـال جد حسـان

فلم يخل سيري منك يوما ولا السرى

ولـــم يخل من تمثالك القمـــران

عن كل ارض من هـــواك سوارح

ملأن سبيلي أو ملكن عنانـــي

« واجهشت للتوبـــاء لما رأيتـــه

وكبـــر للرحمن حـــين رأني »

واذريت دمـــع العين لمـــا عرفتـــه

ونـــادى باعلى صوتـــه فدعاني »

ثم يدنو منه قيس غاضبا حانقا وهو يتأمله ويقول في نفسه ما الذي اومى بشعري لهذا الغلام المدعي في حين انه لم يسمع به أحد ولم يتحرك به مني لسان .

ويتهمه بالسرقة فيرده الاموي قائلا :

انا الملقـــي عليك الشعو ر مـــن آن الى آن

انا الهاجس والشيطان

فينكـــره قيس لا لا لست شيطاني

ويدعي انه يقول الشعر من نفسه .

وكان من مقتضى هذا الانكار والادعاء ان تنصل عنه الاموي تاركا له العنان ليقول الشعر وحده ان استطاع « قل وحـــدك الشعر اذن » .

هذا ما قاله الاموي وهو ما سقنا من جرائه هذا الكلام اذ انه كان مما يقتضيه هذا التنصل والانفراد ان لا ينطق قيس بمصراع صحيح لانه قد تجرد عن المادة التي كان يستنزل منها الشعـــر سابقا .

ولكن انظر ماذا قال قيس « تظنني لا اقدر » فهو مطابق كـــل

المطابقة للمصراع الاول .

وكان من واجب المؤلف وهو يريد ان يثبت ان قيسا لا يستطيع ان يقول الشعر وحده ان يتحرف من هذا المصراع ولو قليلا كان يقول « أتظنني لا أقدر » او نحو ذلك . لا ان يتركه ينطق بهذا صحيحا ثم يتبعه بصدر بيت اخر حينما يسأله الاموي ان يصور له هذا المشهد ان كانت له قدرة على الشعر . وذلك قوله :

اسمع اذن يا اموي

الاموي انني انظر

ثم يأخذ قيس في كلام هو الى النثر أقرب منه الى الشعر ولكن لو فعل المؤلف ذلك باديء ذي بدء مراعيا مثل هذه المواقف الغامضة لما كان للانتقاد من سبيل .

واخيرا اهنيء شوقي وامته والعربية وابناءها بهذا النجاح العظيم الذي يؤذن بمستقبل باسم للعربية ومجد زاهر لكل من نطق بالضاد .

الاجرام في التاريخ

نشر بمجلة «ملتقى النهرين» ـ العدد ١٦٣ ـ في ١٩ ـ ٤ ـ ١٩٣١)

لم يزل الانسان منذ اقدم العصور يشعر برغبة ملحة الى الاجرام وحاجة شديدة الى الاعتداء على اخيه الانسان والتغلب عليه وسلبه كل ما له من مزايا في هذه الحياة ليستقل بهما دونه وتنفرد بها نفسه المجبولة على حب الاجرام . وهذا هو التاريخ يحدثنا عن اكبر حوادث الاجرام والمجرمين ويوقفنا على نفسياتهم لنحللها من خلال تلك الثورات الدموية التي لم تكن ليقر لها قرار ولا لتهدأ لها ثائرة في يوم ما من ايام تلك الحياة الماضية وذلك الانسان المنصرم الذي لم تزل ابناؤه ـ اناس اليوم ـ يحتفظون ببعض عاداته واخلاقه الشريرة احتفاظهم بالبنوة له والانتساب اليه .

ولقد خلق الاجرام مع الانسان في يوم واحد .

اي لقد خلقت قابلية الاجرام وعاطفته عند الانسان في ذلك اليوم الذي نزل فيه ظهر هذه الكرة الارضية واطلق عليه اسم الانسان .

وتلك العاطفة هي التي اوحت الى قابيل قتل أخيه . ولو لم تكن موجودة لما نزعت نفسه الى الشر في حين انه لم يسبقه عليه أحد .

واذن فالاجرام ليس بوليد الامس القريب وانما هو ترب الانسان وابن يومه .

واول شيء حمل الانسان على ان يجرم هو الغيرة والحسد وبعدئذ تنوعت اسبابه واتسعت وسائله بتنوع واتساع الاعراض

الحيوية التي نشأ من جرائهـا التطاحن والتفائل حتى في اتفـه الاشياء التي لا يقام لها وزن .

وحوادث القتل التي تقع الفينة بعد الفينة انمـا تكون ـ في الغالب ـ معلقة على سلب اعراض الحياة لا الحياة نفسها فالقاتل لا يريد ان يكسب حياة اخيه المقتول ليزيد بها سني حياته انما يعلق عليها اشباع رغباته النهمة وارضاء نفسه الجياشة بشتى المآثم والعدوان .

وحيث كانت الحياة مصدرا للاجرام فقد كان هو سببا الى بقاء بعض الانسان الى وقت ما يتغلبه على بعضه البعض و بالمدافعة دون نفسه بوازع حب الحياة والبقاء .

وما من نفس الا وتنطوي عـلى شيء كثير من تلك العاطفـة الاجراميـة التي كسرت مـن شوكتها وهدأت من ثائرتهـا هذه الحكومات المطلة اليوم على اعمال الناس بعين لا تغفو ولا تنام .

ولولاها لاصبحت الحياة مسرحا تمثل فيه الثورات الدموية وحوادث السلب والنهب بكثرة على مرأى ومسمع من الانسانية التي تبغض هذه الاشياء على انها لا تتفق وقانونها السلمي في حال من الاحوال .

وان مادة واحدة من قانون الانسانية لتحرم تحريما باتا كلمـا يجيئه الانسان من اثم وعدوان .

بله القوانين السماوية وما كان للوضع فيها من أثر . على ان الانسان لا ترعوي عواطفه الاثيمة في سبيل تحقق اغراضها بالرغم مما تنوء به هذه القوانين من عقوبات صارمة وتهديـد وانذار ولكنها تذهب في تحقيق اغراضها غير هيابة ولا وجلة حتى اذا ما اصبح العدل في حاجة اليها رأيتها ترنو بعين الحسرة والندم

على ما اتته وتمتلىء رعبا ووجلا لم يساورها قبل ولم تفكر فيه حين الاقدام .

وعاطفة الاعتداء عميا ءلا تنظر امامها حتى تقع في هوة يربعن فيها الموت الزؤام حيث لا ينفع الحذر اذ ذاك ولا يغني فتيلا .

والعامل الوحيد في هذا الوبال الذي كان ولم تزل ترزح تحته الانسانية هو ثوران العواطف التي لا يملك معها ضعفاء الناس أثرا على القمع والرد .

وقد دلت التجارب على ان المجرمين جميعهم ضعفاء في نفوسهم وان كانوا اقوياء في اجسامهم . اذ الواحد منهم لا يستطيع ان يضغط عواطفه حينما تثور . بل يقف بعيدا منها ويدعها تطفو وتثور حتى يحدق به الخطر وتكتنفه الاهوال . واذ ذاك يثوب اليه صوابه . والهلع الهلع ولات حين مناص . والجرم كل الجرم على تلك العاطفة التي رمت به في هذا القليب البعيد الغور يرفع رأسه فلا يجد من يأخذ بيده ويكون عونا له على الخلاص .

ويلتفت وراءه فلا يرى الا الموت يفغر فاه ليبتلعه .
والى يمينه وشماله فلا يرى الا العدل يمسك بهما واخيرا الهلاك الهلاك ولا منجي ولا فرار ...

والان .. والان ايتها العواطف رحمة بالانسان وعطفا عليها وكفاك قسوة وصرامة ولتقمعي شررك الذي يتطاير الى قلوب البرايا ويندلع الى سويداء الانسانية البريئة فلا تمتلك معه الا الانين المر والتوجع القتال .

الصحافة

(نشر بمجلة « ملتقى النهرين » بالعدد ١٧٧ في ٢ـ٨ـ١٩٣١)

الصحافة يا بنت السماء ونزيلة الارض. يا سر التقدم الانساني ويا معجزة الاجيال . يا خطيبة العالم . ويا موقظة الامم من سبات الغفلة والجمود .

انت .. يا قائدة عقول القادة يا فكرة الخلود . يا نواة الاستقلال ويا عظمة اوربا ... احييك انك لشمس الحضارة المنعكسة على قلوب اظلمتها غابرات السنين والاجيال ورانت عليها حجب التقاعس وصدتها عاديات التقاليد من وجه البحث والتفكير .

وكادت لولاك تضرب عليها ضربة قاضية تفقدها النبض والخفقان .

وانك للشيء الوحيد الذي يبرهن بوضوح على مقدرة الانسان في اشتقاقه أسهل سبل الحياة النافعة. وسعيه في سبيل النبوغ والابتكار .

في سبيل الحياة الخالدة والعقل الجبار .

ولانت بجانب ذلك اكبر عامل في تكوين رجال يعيشون بعقولهم في سماء الخيال والالهام ويمرحون في ظلال الابدية ... انت وما انت غير حياة الامم . ومقياس حضارتها وتخلصها من قيود الجهالة العمياء . فكم من امة أخذت بناصرها في حين انه لم يكن بد من سقوطها في وهدة الشقاء والانحطاط في حمأة الرذيلة .

الصحافة : وما هي غير النور المنبث على سماء الفضيلة والملقى

بلألائها على ارض بسطتها ايدي العقــول . وفضاء دبجته يــد العبقرية على طريق وعــر شائك لا تعبده المعاول ولا تصلحــه الفؤوس .. .على ان ضربة واحدة .. واحدة فقط من شفتي يراع على صحيفة بيضاء لهي اكفل لصلاحها من المعاول وأشد وقعا على رأس الجملة من سقوط القنبلة الحمراء .

فللصحافة اليد الطولى في تغيير مجرى الحياة ومجريات الحوادث والافعال ولها اكبر الاثر فيحياتنا الحاضرة واذا كان الانسانبادىء ذي بدء وقبل ان يتوصل الى معرفة الصحافة يتلقى ثقافته عــن طريق الدرس والاصغاء في مكان محدود امام شخص معين ولم يكن ليعرف الا هذه الوسيلة ليتذرع بها الى التحصيل على ثقافته الادبية فانه يمكننا ان نتصور مبلغ الفرق بينهما اليوم ويمكننا ان نفرق بينهما حتى في الانسانية فنقول : انسانما قبل الصحافة وانسان ما بعدها كما نقول انسان العصرالحجري الساذج وانسان العصر الحجري المنحوت .

ونكون جد عادلين في هذه التفرقة ايما عدالة وانصاف وليست الصحافة في نظر التاريخ الا شيئا محدثا ككل الاشياء التي لها قيمتها ومقدارها الحيوي في مجتمعنا الانساني والتي لم تكن لتوجد الا في هذا العصر والذي قبله .

وهي وان كانت قريبة العهد بالوجود فانها بفضل تقدمها المطرد ونجاحها العظيم اصبحت كما لو كانت تعيش قبل الف سنة ــ نسبيا ــ ولا ريب في ان كل انسان يقول معي : انها بحق معجزة الاجيال المتخلصة من قيود التطور البطيء والمتممة لانسانيتنا من نقصها المعيب ... فهي ثقافتنا الغالية . ومهذبتنا القديرة . ذات المبادىء القوية القائمة على العقلالبشري الناضج والآراءالمترجمة عن اسمى المشاعر والاحساس ..

وهي بجانب ذلك كله مقياس الحق والصواب وقانون البشرية العادل الرحيم ... كم يعمل العقل في رفعها الى مستوى الشرائع . وكم تخدمها المادة وراحة الانفس. وكم تعمل هي الاخرى في صقل العقل وتهذيبه مثلا بمثل ـ وان لم تستطع ان تخدع المادة كخدمتها لها الا في النور القليل . فكلما يسدي لها العقل يدا بيضاء ويمد اليها كفا لا تدع للعثرة اليها من سبيل كذلك ترتفع به الى اقصى حد. وتصبغه بلون المثل الاعلى للحياة العقلية التي هتف بها النوابغ وغنى بها الشعراء ...

وقد بدأت الصحافة تعمل في تاريخ الشعوب بتضامن من الجانبين حتى كان ما كان من تقدم ونجاح .

فالامم التي نراها اليوم متقدمة او على شيء من التقدم. ونحس منها بروح الوثبة والنهوض ونطالع من نفوس افرادها نزوعا الى العلم وميلا الى تمحيص الحقائق ـ هي تلك التي قامت مع الصحافة على قدم الجد وساق الاجتهاد .

أما التي نأنس منها تأخرا وانحطاطا في المدارك والافهام . في الازراق والمشاعر . فهي تلك التي اهابت بها الصحافة فلم تجب. وجعلت في اذنها وقرا دون داعي العلم والعرفان .. ويكفي نقصا ودليلا على الجمود ان الصحافة في السودان لم تزل على عهدها الاول غير واجدة تشجيعا من نفوس الامة ولا متقبلا من شبابها ـ بل المعونة والتضحية في سبيلها بكل راحة ومنفعة ذاتية .

* * *

ويكفينا نحن تقاعسا ان نكون بجانب الامم الراقية التي تقدر الصحافة قدرها وتعرف ما لها من اهمية وعمل في تهذيب الانسان ـ ان نكون بجانبها غير مقيمين للصحافة وزنا ما ولا معلقين عليها

اهمية في يوم من الايام ولكننا نعرف ـ بحمد الله ـ كيف نصون « القرش » حتى لا يفلت منا في طريق الصحف وكيف نعض عليه بالنواجز .. ولو عقلنا وترسمنا خطى الامم العاقلة لرأينا ان ما نضعه في الصحف نأخذ به معلومات تساوي كل مصكوك على وجه الكرة الارضية ... وماذا نريد من القرش اذا كان يجلب لنا التمتع بلذة العلم والاطلاع .

وقل لي ماذا تؤمل منه اكثر من ذلك : أكثر ما نبتاع به حياة عقلية . ونشتري به غذاء الروح والوجدان . اكثر من ان نقدمه آصرة آمرة ونتخذه وسيلة لنطل من خلال ثقبه الضيق على متسع العقول والافكار .

فالصحافة عندنا في حاجة ماسة ورغبة ملحة الى التشجيع والدفع بها الى الامام . حتى تأخذ مكانها مع الصحف الدولية جنبا لجنب. وتجلس على قمة التقدم الباهر في شيء من العزة والكبرياء ...

فشجعوها يا قوم فانها منهلكم العذب الذي تردونه حالما يكون للظماء في نفوسكم شعلة وضرام . شجعوها فانها نور الحقيقة الساطع الوضاء .. ونحن باعتبارنا امة تنصلت او تسعى في التنصل من قيود الجهالة ان لم ننهض باكبر عامل للعلم فماذا يا ترى نفعل؟ انظل نتطلب الكمال والرفعة ونحن على نفق من الارض . ام نكون كازغب يمني نفسه ان يحلق في مطار الفضاء والآفاق وعلى مرأى ومسمع من النسور والقشاعم ...

محالا نطلب لو فعلنا ذلك ونلتمس امرا لا يتسنى لنا تحقيقه الا باجراء العمليات التي تمهد لنا السبل ...

والان نود ان نعرف ما هو ذلك الشيء الذي يضمن لنا النهوض ويكفل لنا استقلالنا الادبي كما استقلت من قبلنا امم كانت جماعة

الارض تنظر اليها بعين ملؤها السخرية والازدراء ؟

وهنا نقول ان الاشياء كلها تكاد تتوقف على الانسان وتكون رهن اشارته ومبغاه. اي ان كل شيء لا يتم الا بالانسان فالصحافة هي التي تضمن لنا النهوض والاستقلال الادبي ولكن من ذا الذي يضمن لها هي النهوض ؟ الانسان من غير شك !

واذن فكل شيء يرجع الى تعضيده وينتهي الى مؤازرته. فلنرتفع بالصحافة لترتفع بنا . ولنولها عطفنا وحناننا المادي لتمطرنا بكل عطف وحنان ...

العلم شيء والمادة شيء آخر لو وضعناهما في كفة واحدة لتبين لنا مبلغ حمقنا الذي يحملنا الى ان نقارن بينهما بوجه من الوجوه .

المادة ما كانت لتستخدم في صلب المنافع والاصلاح . وهل كان العلم الا لتخدمه المادة باعتباره منفعة واي منفعة ؟

من لنا بفهم الاشياء على حقائقها الثابتة حتى نقدر كل شيء قدره . ومن لنا برؤوس عاملة واياد ندية تعمل في مناصرة الصحافة الى غايتها المنشودة . فسوف لا تكون لنا صحافة ما لم نكن كلنا يدا تعمل ورأسا يفكر ما لم نكفر بالمادة ونؤمن بالعلم..

ما لم نحطها بسياج سميك من رعايتنا حتى لا يكون ثمة مجال ليد تمتد اليها بسوء او آثام . اذا فعلنا ذلك وكنا على جانب من الايمان القوي بان الصحافة هي ام الحضارة وبنت العلم فاننا من غير شك سنتذوق طعم هذا الاعتقاد يدب في حواسنا شهيا ممتعا .

وندرك الى اي درجة كان يرمي بنا الجهل في اغفال الصحافة والى اي حد كنا عنها صادفين ... ونظرة واحدة نلقيها الى الغرب ونجود

بها ازاء ربوعه العامرة تثبت لنا جليا ما نريد ان نقوله من ان الصحافة لا ترتفع بالانسان فكفى بل بجانب ذلك تجعل له سيطرة على رقاب الناس اجمعين .

وها هي اوربا مضرب المثل وملفت الانظار فانها لولا تقديرها للصحافة وسعيها حثيثا في سبيل معونتها بالنفس والنفيس لما اصبحت وفي يدها الحل والربط ومقبض نواصي الآباء والاجداد. ولو كان لاحد ان يقول ــ لكنت أنا ــ انها فكرة نبتت على ثرى المريخ فحصدتها الملائكة ثمرا ونثرتها على الارض فجاء والتقطها اول مار على الطريق الاقدس واخذ يقلبها معجبا بهذه الثمرة التي لم ير قبل اليوم اختها على مسكونته الغبراء . فنازعته نفسه على ان يتذوق طعمها فلربما كان موافقا لشكلها الانيق .

وقف يتنازعه عاملان « كل » و «وانظر » ولما كان عامل «كل» اقوى من ذلك العامل تغلب عليه وطغى على كل عامل داخلي آخر.

فقربها من فمه مستكبرا اكلها مستعظما ضياعها من بين يديه داخل الامعاء .

دفعها بشدة في فمه فوجدها الذ مما كان يحسب وأشهى مما كان يظن ...

أحس بافكار تملأ راسه .

«ماذا يا رب انها افكار الهية تفيض بها رأسي فيضان البحر بمنبسط الصحراء ... ميول الى القراءة . ميــول الى الكتابة . ميول الى التفكير . ميول الى ... غير ذلك . كل هذا احس به الآن فأي سر هذا الذي حجبته عن مقاديرك يا رباه .

لو عرفت ذلك الشيء الذي حرك في هذه البواعث لاكثرت منه فما هو يا رب .

عجبا عجبا طغت الافكار مرة اخرى وزاد الميول . واصبحت احس كما لو كنت ريشة في مهب عاصفة هوج .

ومآلي الى ان استسلم الى هذه الافكار طائعا وانزل تحت ارادتها غير منازع ولا مقاوم ... عجبا . زاد وطغى وعظم الامر . اين ... اين اليراع اين الدواة اين آلة الطباعة ؟ هي هذه امامي سهلة التناول قريبة المنال فماذا افعل ؟

لم يبق امامي الا ان اكتب ... اكتب للناس معجزة الاجيال » .

اقول لو كان لاحد ان يقول هذا لكنت أنا ذلك الاحد الذي

يدين ويؤمن بكل ذلك عن طريق المعرفة الخيالة التي تتردد في ضميري كلما فكرت عن الصحافة وكيف نشأت .

فالصحافة بحق اعظم مما نتخيل فهي القوة الهايلة التي ان شاءت اعملت براثنها في امعاء الظلم والطغيان واوشجت رواجبها في يد الاستبداد الممقوت فثلت عروشه وقوضت اركانه السوداء.

ان (الصحافة) لو شاءت عزائمها هتك المغيب ما ولت باخفاق هي قدرة الفكر المتين القائم على الحق والصواب والمستوى على العدل والحرية ... ذلك العقل الناصر للمبادىء الساميةوالمجد في رفع الانسانية الى الغاية التي خلقت لتدركها في الحياة .

في المستوى الشعري للامم

(١)

(نشرت بمجلة « الفجر » بالعدد السادس ـ في١٦ـ٨ـ١٩٣٤)

يحسب الشعر ان يكون اثرا للجمال الاعلى في الارض . وقبسا من النور الالهي في العالم . وقوة من السحر السماوي في الشاعر .

يفتح به من مغاليق الكون ما اقعد الفلسفة ان تنفذ من رتاجه. والعلم ان يصعد على معراجه . ويعالج به من مصايد الروح ما تعيا به حبائل العقل واقضية المنطق . ويصور به خطرات ما كان ليغلق بها الوهم في مضارب هذه النفوس لولا ما للشعر من دقة والشاعر من رقة ...

والشعر بما يغدق من كنوزه على العالم ويفرغ من روحه على الانسان . وما نحضد به من شوكة الشر ويقضم به من مخالب البشر لجدير ان يكون بعد الانبياء رتبة في اصلاح ما فسد من عناصر النفس وابترد من حرارة القلوب واغلق من ابواب السماء .

وان من اكبر الدلائل على سمو الخير في الامة وتمكن الامة من الخير ان يكون لها من ذوقها الشعري ما يدفعها الى تفهم الجمال الحق في ادق مظاهره الشعرية التي قد تكون سكونا وقد تكون حركة او شيئا منهما .

وقد تكون حتما وقد تكون كلاما او شيئا بينهما .

والتي هي لمحات وايماء من عبارات كالصور او صور كالعبارات.
تفيض بها النفس من داخلها او يطفح بها الكون من خارج النفس ...

وان من اكبر الدلائل على سمو الذوق في الامة ان يكون للجمال المطلق في كل مسالك حيواتها منزلة (المعبود) وللشعر المطلق في كل مخادع صبواتها منزلة (العابد) . وسمو الذوق احساس وتأثر ينميه ما في النفس من هيام العاطفة وتحرق الفكر ويبعثه ما في طبيعة القلوب من وله بالجمال وايلاع به ، وسكون اليه واخلاد له . فعند كل احد ذوق ولكن بقدر ما يعرف عن الجمال ويقدم بنفسه منه ويتركز على ذاته من معانيه .

والجمال انما يفيض على الافراد بقدر ما يحدهم من استعداد لفهمه . ومنزلة الثقافة في تفهم الجمال وتكوين الاذواق منزلة ثانوية .

فقد يوجد بغيرها الذوق ويفهم من غيرها الجمال ولكنها تجيء فتتفجر منه ينابيع الشعر الذي يؤسسه الذوق وتركزه العاطفة وتمده من لهيبها القلوب .

ثم يرجع الجمال في نهايته فيحيا في اطياف وظلال من وحي وكلمات هي ... الشعر . ويعود الشعر في نهايته فيكون جمالا وذوقا وذاتا فيها من الحسن ما لا يوجد في الحسن نفسه .

فالشعر جمال وذوق وذات .

والمستوى الشعري للامة انما يثبت على هذه العناصر الثلاث . فبقدر ما يفهم الذوق الجمال . وبقدر ما يخلق الذوق والجمال الشعر . وبقدر ما تخرج في مجموعها ذاتا هي الحسن او اكثر من الحسن تكون الامة ويكون مستواها الشعري بين الامم ويكون

مقياس هذا المستوى الذي نتحدث اليك عنه ....

والآن فقط تقوم في (مصر) نهضة شعرية يحفزها الشباب الذي يطفر الى الآفاق في قفزة ما آمن له معها ان يزل فيسقط أو يكبو فيعتل .

وان مصر الآن لتريش للشعر ما حص من جناحه المهَيض وانتزع من قوادمه وخوافيه واساقط من زغبه وانتثل من ذناباه . ولكن في سرعة وتعجل .. ولكن في قوة واندفاع .. مصر الآن يقودها الى السماء رسل الشباب فيقحمونها في الفضاء ويستكرهونها في مسالك الخيال الذي تمده النفوس الشابة وتبعثه القلوب الفتية ويركزه الدم الناشيء الفوار .

وفي الشباب قوة وللشباب جبروت وفيه ما في البحر من فوران وثورة وعتو وعناد وجزر ومد وتدفع واهتياج .

فليس عجيبا ان تكابد منه قوة غلابة وعزما طغى على قديمها فغمره في حين انها حتى أمس .. أمس الذي وقف فيه « شوقي» على قصر « الحمراء » في الاندلس فاستنشده « يا اخت اندلس» فانشده والذي استعدت العربية فيه « حافظا » على لوثة العجمة وغواشي الصدا فاستعداها بتائيته المشهورة .حتى أمس الذي وقف فيه حافظ على حافة القبر .واستصرخ رصيفه في الفن واميره في البيان فمشى على اثره دراكا ولحق به كما تتلاحق القذائف الصاعدة .. حتى هذا الامس الذي كان يوجه دفته مهيار وابن هانيء . ويعترف زورقه البحتري وابو تمام ويمسك بمجذافيه ابن الرومي وبشار لم يكن لمصر عهد بما تفرغ منذ اليوم على قالبه وتطبع على غراره في الشعر واساليب البيان ومذاهب التفكير المنتج وطرائق الانتاج الممتعة .وانه لعهد جديد ما في ذلك

شك وباب السماء يفتحه على مصراعيه شباب الكنانة ويزحمه على سعته شعراء « النيل » ! فهي الآن سحر وجمال تسير بخطى واسعة نحو انقلاب ادبي يمهد له الشباب في جرأة واقدام ويحسب لهم غيرهم الف حساب من لغة واوزان وقومية ووطنية وصبغة وطابع .

ويتعذر علينا ونحن نكتب عن المستوى الشعري لمصر ان نتبين بوضوح في هذه السماء القاتمة ما يصح ان نسجله لمصر كمقياس لما وصلت اليه من درج او تحدرت له من درك .

وطبيعي ان يكون من نتيجة هذه المعارك اضطراب المستوى الشعري وفقدان الطابع الذي يميز مصر في شعرها وادبها وتفكيرها حتى تهدأ هذه الثائرة وينقطع هذا الصريخ ويتراجع هذا اللجب المنبعث من قرارة الوادي فيؤثر قديم او ينخب جديد.

ولعل ما نلمحه الآن من تزلزل واضطراب وما نلمسه من تبلبل وارتجاج في مستوى الشعر ومقاييس الاذواق يرجع الى تباين في فهم الجمال مبدئيا . وبالتالي الى تباين في الوان الثقافة واجواء التأثير .

ولن يظل هذا التباين كثيرا حتى يستقيم الامر الى الشباب الجامح فيتجه بموكب الشعر الى عبادة (النور) وبحاثم الدهور ومعابد الزهور . الى عرائس البحر واطياف النهر وسحر الربيع وزخرة الينابيع ... ذلك هو الشعر الذي يكون أثرا للجمال الاعلى في الارض وظلالا من الروح الحائم في ملكوت السموات ..؟؟

واما ما يصاقب مصر من شأم وعراق فلم يكن ليؤثر على ادبه في هذه الايام الاخيرة ما أثر على مصر . فهو يقبل ما ينحدر اليه من الغرب ويمهد له اساليبه ويوطىء له من نفوس كتآبه وشعرائه

ليحتلها فتتكون به وتركز به من طابعها الادبي في سلام وهدوء ولهذا وحده تجد الطابع الشعري في العراق ولبنان اشد وضوحا منه في مصر .

ولهذا وحده ايضا تكون النهضة الشعرية في سوريا ولبنان اثبت قدما منها في مصر ولكنها اخف وزنا واضعف علاقة بالخلق والانتاج من مصر بهما .

والادب السوري ادب « كنيسه » يتحرق على «مجامره» الشعراء والكتاب وتستاف من « عطوره » نفوسهم الهائمة التي طبعت على الرقة واللين وحب الجمال .

وفي ادبهم نواقيس واجراس وفي شعرهم اثر « المسيحية » وهو الطابع الوحيد الذي يميز ادبهم عن غيره .

أما المستوى الشعري لهم فهو حيث تركه (جبران) .. خيال وافراط ما تكادتتبين معه الا متعة الخيال . وانطلاق الى غير مدى في هذه السبيل . وان كان لنا ان نعلل بقاءهم على هذا المستوى او ان نقول كلمتنا عنه فانا نعلله بشيء واحد وهو انهم انما يعبدون جبران ويتخذون منه مثلا اعلى للجمال الروحي وقصيدة بليغة من قصائد الحب المطلق فكل انتاجهم من بعده ضرب على قيثاره ونسج على غراره !

أما البلاد العربية الاخرى فما تكاد تحس لها بطابع ذاتي في الشعر لان النهضات فيها غير قوية او لانها لم تتصل بعد اتصالا وثيقا بالنهضة الادبية الحديثة . ومما يصح ان يكون تعليلا لهذه الظاهرة حفاظ بعض هذه البلاد على طابعها العربي القديم وعداوتها للجديد بكل ما فيها من حمية الشرق وحفيظة العرب . وغيرتهم على تاريخهم المغلوط فيه من هذه الناحية الادبية وغيرها . نعم انهم انما يحافظون على تاريخ مغلوط فيه .

ولو اتيح للعرب انفسهم الذين كونوا لنا ادب الصحـراء ان يعيشوا معنا في هذا العصر ـ عصر المدهشات في كل شيء ـ لما كان لهم من التعصب ما يدفعهم الى ان ينكبوا بانفسهم عن طريق هذه الحياة ولجنحوا بآدابهم الى مسايرة روح العصر باوسع ما في الوجود من معنى لهذه الكلمة . وكل حفاظ ابنائهم من بعدهم انما هو جهل بما تبعثه هذه الناحية في تاريخهم من جمود في حين تسعى الامم بآدابها الى مغاليق الوجود فتزحمه على ما فيه من ارواح واشباح .

وماذا يضير العربي ان يحتفظ ببيانه وان يعمل في استغلاله ولكن في غير ناحية الحياة البائدة التي من عبث الايام انا ما نزال نسمع بين ظهرانينا من يحدو ابلها بما قرأ من ادب امرىء القيس وحذق من تفكير طرفه . أكان لهذا معنى وفي الرؤوس افكار وفي الجوانح قلوب ...؟!

وفي الهند تغلب عـلى الشعر فلسفة (طاغور) وروحانيـة (اقبال) ـ اقرأ ما كتبه الاستاذ عزام في مجلة الرسالة عن هذا الشاعر المسلم ونشره له من قطع شعرية ـ وادب الهنـد ادب روحانية وزهادة وتصوف .

يرفض من قصائد شعرائه حنين ولوعة وجلال وقدس ولمحات من الحب الالهي في اطار من الطلاسم والالفاظ . ومهما يكن من أمر الهند في الشعر واسلوب الشعر وطرائق التفكير والانتاج فيه فهو لن يهبط به الى درك الشرق ولن يصعد به الى مستوى الغرب .

. . .

ولئن لم نكن في كثير ولا قليل من لغات الغرب فان ما حذقناه

بالواسطة من ادبه ولقناه بالدليل من اسباب الترجمة ووسائل التعريب لجدير ان يلقى علينا ظلالا من وحي (باريس) والهام (لندن) وانتاج (لندنبرج ؟) . ولن يقف في سبيلنا كثيرا ما نحس به من فواصل اللغة وحدود المكان ونضيق به من ثقافة قاصرة وفقدان للوسيلة المباشرة ان نكون لنا رأيا عن هذه الآداب وان اعوزنا ان نتصل الا بطلها في المرآة . او قعد بنا ان نتفهم من جمالها الا ما يفيض على لغتنا من طرقها في التفكير وقوتها في التعبير .

وهم يقولون ان ما نقرؤه من ادب العرب وشعره معربا الى لغة الضاد فهو لن يخضع الى النقل والتعريب الا بعد ان يفقد كل ما في روعة الاسلوب وعذوبة الصيغ وجمال التراكيب ... وهم يقولون ان اعجاز الغرب وقف على لغته وهو في غيرها مسخة من كلام .

فقل لي بربك ماذا كان ينقص الغرب في ما لدينا من مآثره . وأين ما يعاب عليه من مآخذ الا انه جميل معجز ... ؟!

وفي هذه الآداب الثلاثة وغيرها يقف الغرب الشاعر منا موقف القصيدة من الكون والفكرة من الاسلوب والحياة من وحدة الزمن .

أجل يقف الغرب الشاعر منا موقف الحياة من وحدة الزمن ندور حوله كما تدور (العقرب) حول الساعة والساعة حول الزمن والزمن حول الحياة .

فهو الان وحده الذي يركز شاعريتنا ويمهد لها طريقا بجانبه وهو الان وحده الذي يفيض علينا من غريب ما أثره من كنوز العقل وعجيب ما احرزه من ذخائر القلب .. في هذه الآداب الثلاثة وغيرها يتجلى ما للغرب من عظمة في الشعر ومنزلة من الحياة الشعرية

التي لا تعرف للارض الا طريقا واحدة هي السماء .

فالشعر الذي استفرخ على احضان « الفرنسية » والشعراء الذين درجوا في معاهد « المانيا » وزخرت بهم مسارح « اوروبا » انما افاضوا على هذه اللغات كنوزا من الايحاءات وصورا من الجمال الالهي .. !

وفي اليونان نهض الشعر بجانب الفلسفة من لدن نهَض التاريخ من مرابضه وهو منذ تلك الساعة يتعثر بين مسلك العقل والقلب.

يغالب الفلسفة الموروثة طابعها ويتفيأ من ظلالها بقايا ما تمده على مضارب (اثينا) وجبال (أميتوس) .

ولولا ما تلطف منه الموسيقى وترقق منه الفنون لكان جافا الى درجة البحوث العقلية . وهيام اليونانية بالموسيقى من عهد (هوميرس) وابعد منه هيام مستحكم في نفوس (الاثينيين) ...

يقولون ان اللغة العربية يوم مهد لها التاريخ أن تقف من اليونانية موقف الناقل لم تظفر بشيء من ادب اليونان لتهالكها على تعريب ما خلفه سقراط وابقراط ولو رغبت في نقل ما أثره هوميرس وغيره من الشعراء . والادباء لكان لادبنا اليوم شيء اخر ولكنا نقول ــ مع مراعاة انها لم تظهر رغبة في نقل شيء من أدب اليونان ــ انها وهي في موقفها الحاضر فلا أقل من ان اليونان لم تنفرد بكثير من الاحساس هي منه على قطيعة وتناكر .

وان تبثه اليونان في شعرها وادبها من اساطير ليكاد يرجع بها احيانا الى سذاجة الاطفال ...

وبحسبك ان تقرأ عن « سافو » فيما كتب عنها في مجلة الفجر انها انقلبت بعد موتها الى (بجعه) لتحكم على تأصل الاساطير وهيمنتها في هذا الادب الذي لم تعرف الارض ادبا قبله تحت هذه

الشمس ولولا ذلك ان لولا ما تلطف منه الموسيقى لكان صورة لما يقدمها لنا (افلاطون) في جمهوريته معرضا باصحابه سافرا منهم هازئا بهم في اسلوبه اللاذع المرير .

وخلاصة القول ان المستوى الشعري عندهم انما تتعهده الموسيقى وهو لا يستطيع ان ينفك عنها فينبت . أو ينفصل عنها فيقر ...

اما في السودان ! أما نحن ... نحن ايتها الامة المسكينة فانما نعيش على هامش الحياة !!

في المستوى الشعري للامم

(٣)

(نشر في مجلة « الفجر » في العدد السابع في ١ـ٩ـ١٩٣٤)

مما نحمد عليه الله ان دراستنا للشعر العربي لم تكن من نوع الدراسات التي يتناولها بعضهم ناقصة من كتب العصر مبتورة من بين يدي الكتاب . ثم يصدرون عنها . وهم أشد قنوعا واكثر ثقة من نفوسهم بما فقهوا من صور الادب واستظهروا من الوانه ... انما كانت دراستنا له دراسة استقراء وتفهم يؤسسها انقطاعنا الى قديمه وهو اذذاك يدلج و يأوب بين مضارب الصحراء و مسالك العراء : يحب و يبغض . و يمدح و يهجو . و يفاخر و يتوعد و يتحيف و يثور و يدل و يصلف . ثم هو في بداءة الاسلام ينحمه ما نزل على « محمد » من بيان واعجاز فيطرق في حيرة و ينصت في اعياء . ثم يتحرك في بطء وقد القى عليه « القرآن » من ضوئه ما القى .

ثم يعود الى قديمه ولكن في غير خشونة البادية بعد أن صقلت منه روح الاسلام ما علق به من جفاف . ثم هو بين قصور الخلفاء ترقق منه النعمة ويلطف منه الجاه .

أجل مما نحمد الله ان مهد لنا من دراسة الشعر العربي ما يؤهلنا للحكم عليه في ضوء الحديث والبحث عما اثر فيه من عوامل وعمل فيه من مؤثرات في كل ما مر به من اطوار ، حتى وصل

الينا يحمل من صور العصور وطابع الحضارة الاسلامية ما أفاضت به عليه قلوب الشعراء . وصل الينا ونحن في عصر عرفت فيه الحضارة طريقها الى العالم وتغيرت فيه الحياة تغيرا ظاهرا يكاد يكون انقلابا ، يقتطع من تاريخها كل قديم ويمسح من حسابها كل سابق .

وامتزجت فيه الامم باروواحها امتزاجا لا محيد عنه بعوامل الاستعمار والسياسة والاقتصاد ، وتوحدت فيه انظمة التعليم وطرائق البحث وتقاربت فيه الثقافات .

وكان من الطبيعي ان يكون ذلك .

من الطبيعي ان تتغير الحياة وتمتزج الامم ويتجه موكب العالم اتجاها واحدا يجعله يضيق بماضيه في كل شيء لانه يضيق بحاجته الى الحياة ولا ينهض برغباته التي اثارها في نفسه منجديد لم يكن له به عهد من قبل ... ومن هنا ابتدأت الامم تفترق في داخلها بما ترسم من خطط تعين بها نقطة الاتجاه في بعث القديم وحفظ الجديد ، فاسرعت الامم وابطأنا واصابت الشعوب واخطأنا . سواء في ذلك بادىء ذي بدء نصبب كل البلاد العربية .

ومن هنا كانت العوامل التي جعلت الشعر العربي يدين للادب الغربي في كثير من الاعتراف بما له من تفوق عليه ... ذلك الغرب الذي لم يكن له من العظمة الادبية ما كان للشرق في سنيه الاولى وعهد نهضته الغابرة . فاي قوة واي سر هذا الذي رفع به الى هذا المستوى الشعري وأطل به من هذه الابهاء السامقة والشرفات الرفيعة ؟

واي سر ذلك الذي قعد بالشرق مكانه الادبي حيث هو قبل الف سنة من التاريخ ؟!

نحسب ان من بعض مؤثرات ذلك ان ادباء الغرب انما يتعهدون قديمهم بالصقل والتهذيب فيضيفون اليه ما تدفع به العصور فيما تستجد من حيوات، وما تبعث به هذه الحيوات من حاجة وما تلبس هذه الحاجة من صور واشكال .

ويدرسون شعراءهم في شرح وتحليل وبحث عن نواحي عظمتهم الادبية فينتجون في تراجمهم عن هؤلاء ادبا مستقلا يزيد من صفحات التاريخ ويضيفون به الى ادبهم صفحة جديدة من صفحات الفكر الحديث .

وانا وان كان لنا من امثال ابن الرومي ومهيار وابي العلاء وغيرهم ممن يمثلون الحضارة العربية لا جفاف البادية ما يكون مدعاة فخر ومظنة عظمة شعرية فلم نحاول يوما ما ان نشرحهم شرحا وافيا نتلمس فيه ما لهم من القدرة التي كانوا يعالجون بها مواضيعهم . وما عندهم من نبوغ يجعلهم أقرب الى الحياة في كل عصورها الآتية وما فيهم من النواحي الخالدة التي تستحق الاكبار .

لم نعالج يوما ما ان نحلل شعراءنا على ضوء الحديث وان نتفهم ما استودعوا قصائدهم من لذة وافرغوا عليها من روح حتى نسايرهم ونتأثر خطواتهم ونحن أشد رضا عن أنفسنا بما حذقنا من الوان الادب وابتعثنا من قادته ومؤسسيه .

ولو كان لنا ان ندرس في استقراء وتعمق شعراء العربية التي زخرت بهم دولة (الامويين) وازدحمت بهم قصور خلفاء الدولة « العباسية » على ضوء هذا العصر لما كان لامة ان تحرز من العظمة الشعرية ما ينبغي ان نحرزه نحن الشرقيين .

ومن اجل هذا الاهمال اصيبت العربية في أدبها بقدر ما أصيب الادب في رجاله وأصيب العرب في تاريخهم بقدر ما اصيبوا في مجدهم الفكري الذي كان من حقنا ان نبعثه من مرقده حيا مكتمل الحياة الى جانب آداب الامم الاخرى ، ولا يتسنى لنا ذلك الا بدراسة الشعراء على ضوء العصر الحاضر .

وان ادبنا العربي لغني بما في دواوين شعرائه من كنوز ولكنا لم نوفق بعد الى البحث عنها توفيقا تاما يكفل لنا استخراج تلك اللذة التي تحيا في غزل بشار وشعر ابن ابي ربيعه وخمريات ابي نواس وذلك الالم العميق الذي يدفق من شك ابي العلاء والوصف الدقيق المعجز والصور الحية المتحركة على لوحة ابن الرومي .

وما نقص شعراء العربية شيء من المتعة ولكن ينقصنا نحن ان نعمل في استخراج هذه الصور من بين قصائدهم التي نقرؤها على مدح أو هجاء او غزل او ما الى ذلك في حين يفوتنا درس ما لهم من خصائص التفكير وميزة التعبير وما عندهم من موهبة الخلق والابداع . نعم في حين يفوتنا ان نفهم ادبهم في غير ظاهرة وان ننمو به نحو استعدادنا العصري الذي يقوم على تهويل كل ما من شأنه ان يخفي حتى عن الاوهام . نريد في دراستنا الى الشعراء ان نصرف ما يمكن صرفه من ادبهم على غير وجوهه الى ما عسى ان تحتمله الفروض وان نخلق من حبتهم قبة وان نضخم ونهول ونفترض فنحل منه مشاكل ونخلق فيه مشاكل ونبعث فيه غموضا يفسح لنا في طريق البحث والانتاج .

وما أحسب ان طريقا انفع واجدى الى دراسة الشعر والشعراء وتحسين المستوى الشعري للعربية من هذه الطريق . وما آمن

على نفسي من هذا الرأي ان ارمي فيه بكثير من الشطط ولكن لا . فانا اول من يحقق ما اقترح واول من يبدأ على هذا المنهج بدراسة شاعر او شاعرين على اكثر تقدير ... ومن بين هـذه المؤثرات التي كان لها اكبر أثر في الوقوف بالشعر العربي حيث هو الان انقطاع المادة المنتجة انتاجا قويا اشبه بالحياة في هـذه الايام . ما ننكر ان ما بين ايدينا من الشعر العربي لم يكن الا انتاجا قويا اشبه بالحياة يومئذ . ولو اتصلت هذه المادة المنتجة اتصالا وثيقا منظما متجددا بتجدد الايام في قوة وارتبـاط اذن لكان للادب العربي اكبر فضل في تاريخ العالم . ومن ثم كان عصر بني أمية والعباسيين صورة مـن هـذا الاتصـال المنتج . لان المادة كانت متماسكـة لم تنقطع خـلال ذلـك متسايرة مع ما يطـرأ عـلى الخفاء مـن جديـد ولكنهـا على أثر هذا بدأت تنحل باغلال الحكم وتضطرب باضطراب الـدول الاسلامية حتى وصل بها الاسترخاء الى انقطاع يشبه بالموت في اخريات عهد (الفاطميين) وما بعده .

ومهما يكن من مسببات الركـود الادبي فهو حقيق بالـدرس والتمحيص . حقيق بان نعمل في سبيله كل جهد حتى يدرأ عن ادبنا خطرا محققا يهدد دعائم الشعر بالاهمال ويعصف منه بما بقي من ذماء بين حفاظ القديم وتهور الجديد .

وليس ادعى للنجاة وتفادي الخطر ورفع الخمول من ان نكون وسطا بين المرتبتـين حتى نضمن لقديمنا ان يحيـا وللمستوى الشعري ان يثبت على دعامة الحياة الجديدة .

مشكلة ادبية كبرى

بين الشاعر والناقد

(نشر هذا المقال بمجلة « الفجر » ـ في العدد الحادي عشر في ١ـ١١ـ١٩٣٤ وقد علق عليه رئيس تحرير المجلة المغفور لـه « عرفات محمد عبدالله » بما يلي :

صاحب البحث شاعر قبل ان يكون ناقدا ـ بل لعله لا يود ان نحسبه من النقاد بعد ان كال لهم وأوفى ـ فهو يزعم ان النقاد بوجه عام نظريون، ماديون، علميون : والشعراء بحكم شاعريتهم خياليون .

والبحث طريف في ذاته ولعلّه جاء في اوانه لان للغموض في الشعر اليوم انصارا ـ المحرر)

اذا توقف فهم الاشياء على الذوق . وانقسمت الانفس في داخلها الى مذاهب وشيع وتناصرت العواطف والاعصاب وتفاعل العقل والقلب . واضطرب الوجود الداخلي وتعددت مقاييسه ورجحت كفة وشالت اخرى ثم شالت كفة ورجحت اخرى .

وتبلدت نفوس ونشطت نفوس وكان جفاف وكان لين .

وكان تناكر وكان ائتلاف . هنالك يصبح سلطان العقل ضيقا محدودا لا أثر له في حكم يصدره أو أمر يضفيه . والا كان سادرا في ضلاله متى حاول أن يقف من الذوق موقف الهيمنة والسلطان .

وهل يمكن ان يكون الذوق شيئا تتحكم فيه أقيسة المنطق أو ضربا من العلوم النظرية التي يخضعها العقل لسلطانه فينفذ منها الى أقصى ما تصل اليه اطرافهـــا من دقة وعمق أو من تغــور وامتداد ... ؟

لا لن يكون ذلك . ولن تحلم القوى العقلية نفسها ان تستحيل يوما ما الى قوة روحية بحتة . ولكن بعض النقاد ــ سامحهم الله ــ من الذين لم تتوافر لديهم تلك الميزة الروحية الخفية التي يتهيأون بها الى فهم لغة القلب . تأبى عليهم مقاييسهم النابية الجافة الا ان يقحموها في كل شيء والا ان يزنوا بها ما خف ولطف حتى لم يعد لهم في انصبتهم أثر . وما جف وثقل وتحجر وتراكم حتى طفر الى ما وراء ارقام الميزان .

وهم بذلك يتحيفون على الشعر الحديث وعــلى مناهج الشعر الحديث وينظرون الى الحركة الادبية نظرة شك وارتياب. ويعلنون في صراحة مؤلمة انهم لا يفقهون شيئا من هذه التعابير التي قد يكون فيها « شرب الضوء » و « رشف الاشعة » و « التهام النظرات » .

ومفهوم ان العقل لا يقر شيئا من هذا لانه فيما يفكر ويتناول ويقر ويثبت مادي بحت أو كالمادي البحت لا يؤمن بالروح ولا يعرف كيف يكون شيء من هذا الجنون ؟

ولقد تدهشك حيرة النقاد وجمودهم امام ارق المعاني وأعذب الالفاظ . وتساؤلهم في خبث عما تعنيه هذه الكلمات. ولن يستطيع الشاعر ان يقنع احدا منهم بأنه انما يعني كذا او كذا من المعاني الروحية فهو لم يقتنع له . لانه ان كان في استعداده وجه لقبولها من قبل فليس هو في حاجة الان الى الوقوف امامها هكــذا توقف الحائر المأخوذ . ولكن لما لم يكن على استعداد لاستكناه ما تقصد

اليه فانه لن يفهمها حتى ولو افرغها له الشاعر في قرارة روحه ... وهم بذلك انما يدللون على جدب ذوقهم الشعري وانهم اغلظ احساسا وأجف عاطفة وأبلد شعورا من ان تلامس هذه التعابير ارواحهم في رفق ولين فيطربون لها ويرقصون على نغماتها ويتساوقون مع الحانها كما تتساوق العين مع المرئيات . واذن فالشعراء امام أمرين اما ان يأخذوا بيد النقاد الى البحر الذي ينهلون منه ويطلوا بهم من الثنيات التي يستوحون فيها ويهبط عليهم منها شيطان الشعر أو شيطان الجديد ليرى الواحد منهم بعين رأسه طول النهر وعمقه وزخرة امواجه وما ينبت شيطانه من ملائكة وشياطين . والا بقي الامر معقدا وازدادت الهوة سحقا واتساعا بينهما حتى تبيد السماء وتطوي الارض .

وهذه في نظري مشكلة ادبية كبرى لا يمكن حلها بمثل تلك السهولة التي الفناها في المشاكل الادبية قديما وحديثا . وانها ليغلب عليها ان تكون من ملازمات هذا العصر الذي لم يسبق ان تباعدت المشقة هكذا بين الشعراء والنقاد الا فيه . فان من يقرأ نقاد ابي الطيب مثلا وما الف من الكتب فيما له وما عليه ، لا يعوزه ان يجد للمشكلة الادبية التي تقوم بين ابي الطيب وخصومه وناقديه حلولا ما تترك مجالا للشك في صحة ما انتهت اليه لانها تكون غالبا من نوع النقد الموفق المحدود الذي لا يجهد الانسان كثيرا في اقامة الادلة والشواهد عليه .

فقد تكون في معنى مسبوق فيه . وقد تكون في تعابير مرغوب عنها كالالفاظ الحوشية الخانقة . وقد تكون في شذوذ نحوي او لغوي أو ما الى ذلك فالشعر محدود الاغراض والنقاد موفقون في في وجهة انظارهم التي لا تبعد عما شرحنا بكثير . ولكن الشعر الحديث والطريق الذي بدأ يأخذ فيها منذ قريب هي التي خلقت

له نقدة لا من نوع أولئك . لانها ليست من نوع الادب . وباعدت بينهم وبين ما تسرف فيه هي من تلطف في المعاني واندفاع مع الهواجس وتوغل في الشعور وافتنان في التعبير .

فانت تلاحظ تعمقا وتحس شذوذا في توثب الخيالات بعضها اثر بعض وتزاحمها في البيت الواحد من الشعر الحديث . وترى خروجا على ما الفه الشعراء من قيود وتقيد لا مع الاوزان ولكن مع المناهج التي ظل يسلكها القديم وما زال يسلكها ويناصرها القدماء وما يزالون يناصرونها حتى اخر لحظة من الحياة .

فان من اهم ميزات الشعر الحديث انه اصبح يؤدي واجبه في الحياة كلغة سماوية عليا لا كاصطلاحات بشرية قاصرة . وان الشعراء اصبحوا يؤدون واجبهم كأنبياء تفتح لهم ابواب السماوات لا كهؤلاء الناس الذين يغلب عليهم الشر ويتكاثفهم التراب .

فمن الطبيعي ان يأخذ النقد عليه قليلا مما أخذه على القديم وكثيرا مما لم يأخذه النقد عليه .

ولئن كان يعني من ذلك باللغة والالفاظ فان له من هذا المناحي كثيرة منها اللغة ورخاوة التعبير واضطراب الموسيقى وغرابة المعنى أو شذوذه وتعقده أو ابهامه ثم الخبط والخلط والهذر والهراء والتجديف .

ولا حاجة بنا الى التحدث عن ضعف لغته أو قوتها واضطراب موسيقاه او اعتدالها فان ذلك سيصل منه النقد لا محالة الى نتيجة طبيعية مقررة .

وما كل الشعراء فقراء في لغتهم وان كان بعضهم يأخذ منه الضعف بنصيب . ولا كلهم يجهلون مقاييس الشعر وان كان منهم

من يتعثر احيانا ويخلط بين بحر واخر . ومثل هذه المشاكل كما قلنا يستطيع الشاعر والناقد ان يصلا فيها الى نتيجة محدودة وان يقتنع احدهما الاخر بخطئه .

ولكن . ولكن غرابة المعنى وتعقده وابهامه ثم اخيرا طريق فهمه فذلك ما لا يقع في مكنتهما ان ينتهيا فيه الى حل معقول . ومن هنا يتفرع الخلاف ويستحد النقد وتتسع الهوة الفاصلة حتى ما يكاد يسمع احدهما صوت الاخر وهو يصيح بملء فمه !!

فالمشكلة اذن ذوقية اكثر منها نظرية أو علمية بل هي لا تعرف الى النظر طريقا ولا الى العلم سبيلا .

والحق ان الاشياء اذا كان فهمها مقصورا على الذوق كان التباين فيها شديدا واضحا بين الافراد. فما يقدره البعض ويكبره ويلذه ويخلد له ويسمو به الى حد الاعجاز ، هو بعينه قد يستهجنه البعض ويستخف به ويسخر عليه ويستهين به الى حد الاغفال .

فهؤلاء النقاد ينظرون اليه من وراء الخيال الذي يزوده العقل وتمده العاطفة المشبوبه من لهيبها المضطرم . فلن يتوافى منهم اثنان على مشروع واحد الا اذا تنازل احدهما عن مبدئه الى الاخر .

وما اظن ان ذلك يكون . وما أحسب ان احدا يرضى ان ينهزم عن رأيه الذي كونه في الحياة عن شيء بعينهالا اذا وضح له انه خطأ محض لا سداد فيه ولا اعتدال . بل لا يمكن ان يتحلل احد عن قيود ثقافته التي تخلقه خلقا جديدا فكرا وذوقا واعصابا والتي تدفعه قسر ارادته وتوجهه الى ما وجهت اليه هي من قبل .

أجل ان الانسان ليصدر رأيه عن الشيء وعليه من دمهوثقافته واستعداده طغراء ثابتة وطابع لا يغش ولا يخدع ولا يوارب هو

عصير من نفسه وميوله واهوائه واتجاهاته وهو ثمرة طبيعية لتفكيره حسبما يؤثر فيه من ثقافته ونوع اطلاعه والكتب التي يقصر عليها جهوده .

وما ننسى ما لهذه من أثر في تكوين الآراء . ومن لدن صدر ديوان « الملاح التائه » وغيره و « الالحان الضائعة » وغيره ثم لنا ان نستعرض كثيرا من الصور يسرف الشاعر في السمو بها حتى يوشك ان ينفذ بها الى السماء ويسف بها الناقد حتى يلامس بانفها الارض .

على ان ما يعده النقاد مآخذ على صاحب الملاح التائه ليس في كثير منه ما يصح ان يكون غميزة على الشاعر ان لم ينقلب بدوره الى نقص في ذوق الناقد .

هذا هو « المازني وهو شيخ من شيوخ الادب ما من ذلك ريب. وهو شاعر لا يعوزه الاحساس الشعري ولا يلتبس عليه الجمال بالقبح ولا القوة بالضعف وقد تناول الملاح بالنقد وما كنا نتوقع منه ان يتناوله الا بتلك الروح التي صقلها الشعر ولكنه غالى واسرف في انكار قلمه الذي عرفه الادب منذ أمد طويل خبيرا بمواضع الجمال بصيرا بمظان القوة مقسطا لا يتحيف ، هادئا لا يندفع مع ثأر ولا تهزه موجدة احسها للانتقام من وراء حرمة الادب .

واني لامثال المازني ان يشغلوا نزاهة اقلامهم في نزعات النفوس ونزوات الاغراض . هذا هو يعود ليتناول من مكانته التي احتلها في عالم الادب قريبا من ثلث قرن فيعمل قلمه في الاثار من الاستاذ « المهندس » وفي يقيني انه ليس بمطمئن الى ما كتب من الناحية الادبية وان كان مطمئنا اليه من ناحية التشفي والانتقام لانا

لا نستطيع ان نتهم خبرة الاستاذ المازني في النقد ولا نستطيع كذلك ان نؤمن بان ما كتبه في جانب النقد النزيه او في مكان من الحقيقة في غالبه . فليس هو بنقد اذن ولكنه شيء اخر ...

ولقد قرأت فصلا لبعض النقاد يأخذ فيه على صاحب الالحان الضائعة كثيرا من امثال :

عصرت روحي خمرا للورى وهدى وما تذوقت منها بعض ما شربوا

يسأله في قحة كيف تعصر الروح « والعصر شيء مادي والروح لا مادة فيها » وهكذا مما لا يعدو ان يكون تعنتا محضا لا يد للعلم ولا للنزاهة فيه .

فبالله ربك ايعتقد هذا الكاتب انه ينقد ؟

وما النقد اذن ؟ أهو الانكار في صراحة كهذه ؟ أهو السخر في مرارة كتلك ؟ ام هو التعنت في خبث لا نزاهة فيه الى ماذا..؟!

لقد خلص الى يدي منذ ايام جواب من « اديب » لا اعرف من يكون هو يأخذ فيه علي غموضا يرى اني « اسرف فيه واشحن قصائدي منه » ويأخذ علي اشياء اخرى لا صلة لها بالادب في كثير ولا قليل .

وأقسم انه وثلاثة غيره لم يسهل عليهم ان يعرفوا ماذا اعني في هذه الابيات :

وانت يا من ذقت طعم الهوى من سحر عينيه ومن خده
عيناك هاتان ... وقد صيغتا من كبرياء الحسن ام مجده
عيناك هاتان ... وما فيهما من هادىء السحر ومحتده
كمضمر سرا ومن بينه مغالق الكون ولم يبده

واعوز احد الاصدقاء وهو ... أديب اي والله يكتب عن ... « اسماعيل صبري باشا » ان يجد عصا ليشج بها رأسي لانه لا يعرف كيف يفيض القيثار بانسان :

هـــذه امه يفيض بهـــا القيث ار فاسمع حنينــه وانكســاره

وقام صاحبي وقعد ليصل بنا الى حل معقول لهذا البيت ولكنه اخفق !

وبعد ، فهذه مشاكل تقع في ادبنا الحديث . وما أرى الا انهـا ستتسع باتساع افقه. وما أرى الا انالنقاد سيجدون وسيحنقون وتضيق نفوسهم بما في هذا الشعر الجديد من سعة .

وسينكرون جادين او متعنتين . فاذا رأينا ان نؤلف بين الشعراء والنقاد منذ الساعة وجب علينا ان نوحد من اذواق النشء بمـا ندفع بهم اليه من نوع الاطلاع الذي كون اسمى الشاعريات وما زال يكونها لا أن نفرض عليهم تذوق هذا اللون من الشعر وهم أبعد ما يكونون عنه ثقافة واستعدادا .

القيادة الفكرية

(نشر بالعدد الاول من مجلة « ام درمان » ١٥ـ٩ـ١٩٣٦)

الا لست اريد بها القيادة الفكرية في التاريخ وان كان هنالك الافراد الذين وضعوا في الحياة اثرهم الذي يقود الحياة ، واعلنوا في الارض سلطانهم الذي يقهر الدهر .

وخلقوا هذا التاريخ فهو عليم وقف يشرد من ذكرهم في الآفاق، وينشر من مبادئهم في العالم ، ويجدد من جهودهم في الاصلاح ، ويسير بهم الآناء ويستقيد بهم الدهر ، فلا يفتر وهم فيه ولا يشح وهم عنده .

الا لست اريد بها هذا وانما اعني بها القيادة المحلية لهذا الفكر السوداني في حين لا الامر عليه بواضح ولا المسلك لديه بمعروف. وهذه الحياة من حوله تستجد في كل يوم احوالا من التقلب والوانا من الاوضاع يدفع بعضها بعضا الى ضرب من الحياة اشبه بالسحر وادنى الى الخيال فيه بهجة الفردوس واضطرام الجحيم وحركة العاصفة، وهو يقف من هذا كله موقف المأخوذ يقلب نظره الحائر على ألم الحرمان ان لم يكن له من يدفع به في هذا الضرم الفكري وقد صهر الاجناس على شتى انواعها من الناس ، واحترقت به الامم التي تعود اليوم اشد صفاء في العنصر على نسب بيننا وبينهم في الحلف قريب ، وانحدار كذلك من منفذ للوجود واحد ... هؤلاء الناس هم الذين قرروا في الارض جبروت الانسان وانتصاره على قوى الكون الهائلة واغرابه في صوغ الحياة الصوغ

الذي عرف الفكر كيف يوجد به دنيا سحره ومضطرب اعاجيبه فهنا العلم يغزو ويفتح منتصرا ابدا مبدعا اليوم مفزعا غدا وقد عقد له اللواء واكتمل له السلطان وانحنت امامه الحياة خاشعة مطرقة ترقب ما يفجأها به من فتح جديد ، وهنا النظريات التي تصطدم وتتآلف ، وتفترق وتلتقي ، والمذاهب المحتربة المتضادة، والاراء المختلفة المتغايرة والنضال المستمر بين العلم والطبيعة وبين الفكر والدين وبين الباطل والحق .

والدنيا القائمة القاعدة التي تشهد من هذا كله ما يزحمها بالنشاط ويضرمها بالحركة على حين تحمل في طرفها الاخر شعبا هو هذا تهدهده رعشة الزلزلة في الطرف الاخر فينام على ضور ويتهدم على فتور فمن المسؤول عنه وما هي الوسائل المجدية في استجماع أمر قيادته الفكرية عند من يحرصون ان يواجهوا به وجهة الحياة والنور .

من العجيب الا يكون للمذاهب الفلسفية او الادبية على كثرتها اثر في هذا البلد . والنضال الذي يحتدم ويستعر في بطون المؤلفات وعند انصار رأي واشياع اخر ودعاة مذهب واتباع اخر ما يصرخ بعيدا عن عالمنا هذا . وحتى الذين يقبسون لنفوسهم شيئا من هذا القبس الفكري لم يوجد لديهم الايمان القوي بان الترويج بهذه المذاهب والاراء والنظريات يصح ان يتقدم بالحياة هنا خطوة واحدة .

ولهذا فانك غير واجد عند احدهم ايمانا صحيحا او مناصرة حقيقية لما قرأ من مذاهب او شدا من افكار .

لان الواقع ان الذي يحيا هذه الحياة الفكرية يضرمه شوق عنيف الى الحديث عنها والدعاية لها بشتى الوسائل غير مبق جهدا

في سبيل تعميمها وسوق الناس اليها وبثها في ارواحهم مؤمنا بقوة الحق الذي فيها ، مطمئنا الى ما تحمل من خير ونور .

ولن تجد أيضا من يدعو او يبشر بمذهب ادبي خاص يقتنع بضرورة الاخذبه ويكافح مخلصا في الدفاع عنه والتعريف به والتحبيب اليه .

فهلمعنى هذا ان ليس في العالم فكر ؟

وهل معنى هذا ان ليس في الوجود مذهب ام هل معناه انا امة أكبر همها ان نحيا الحياة في اخف اوضاعها فتلتف بها الايام ويلتوي عليها الدهر وكأن لم تتمتع ابدا بشعاع من نور العقل .

الواقع ان السودان اليوم على رغم ما يروجون عنه من دعاية للفكر كاذبة ليس هو الا بلدا لا سلطان للفكر فيه بحال وليس يألف ـ ان اتفق له من هذه الحياة الفعلية شيء ـ الا اخفها على العقل وأيسرها على النفس والا اطرافا من الفكر الذي لا يمكن الا ان يدفع بها في كل مجتمع يتألف من هذا المخلوق الناطق .

ولو قد كان هذا هو كل ما يصح ان يقوم به أمر الانسان فان الغرائز وحدها لكفيلة ان تسد مسده فلا حاجة لنا بفكر لا شأن له الا ان نعرف به بسائط الوجود . وتلك أوفى خدمة يفرضعلى الفكر ارواؤها ليخدم بها الحياة هذه الخدمة الضئيلة التي تمسكها على ابسط الانظمة حتى يكفل لها الاستمرار في طريق الموت وحياتنا الان ليست بخير من هذا فلا فكر كما قلنا يزحمها بالنشاط ولا مذاهب ولا آراء ولا حركة للعلم ولا دماء من المعرفة ولا قيادة في كل هذا تحاول ان تقدم لنا الغذاء الصالح لنندرج به فيسبيل العقل الذي يمسك بطرفي الدنيا فيفرجها عن كنوز هي نصيب

الانسان وحده وبها يملك من معاني الانسانية اروع برهان على خلافته في الارض .

واذا كان لدينا من يؤمنون بوجود هذا الفكر الذي يخلـــق التاريخ وينضر الحياة ويحقق السعادة ويخلد الانسان فانهم لا يبشرون به ولا يدعون اليه حتى لقد الفنا يوم كان لنا ان نعرف ان في العالم فكرا هو غير هذا الذي نحمله على نسيان له ،ونشقى به على تغاف عنه ان نقتنع بانا لم نخلق لمثل هذه الحياة وما تزال بنا هذه الالفة حتى لتوشك ان تعود حقيقة لا مفيض من الوقوع لديها ما دام الواحد من هؤلاء المثقفين لا يطمع في اكثر من انيقود نفسه الى القراء ولن يفرضها عليهم وهم يجهلون كل شيء عن مدى ما تأخذ الحياة الفكرية منه .

الحق ان المكلفين بقيادة الفكر في هذا البلد قوم لا يقودون الا انفسهم الى الناس في الوان من الكتابات ليس لها من القيمة ما يهيأ لها النفوس ويستلفت لها النظر .

والكاتب ان لم يفن في الحياة ويدن الى الامة فيما يحمل لها من صور واراء ويضع فيها نفوذه الشخصي وايمانه وحريته ودم قلبه وآثار روحه في صدق النبيين واخلاص المجاهدين قاصرا كل قواه على ان يثير فيها من الشؤون والافكار ما هي مؤمنة بـــه لا محالة ، عاملة له من غير تردد ، فانه لن يكون في انتاجه لها الا منسيا ابدا ضائعا ابدا مستنفذا جهده في غير ما طائل من ذكرى أو أثر .

وتلك هي الحقيقة التي يقع تحتها كل كتاب هذا البلد عى قلة من نعني باسم الكتاب ، وانالواحد منا ليكتب كثيرا ولكـــن ان رجع الى كل ما كتب ليقيس مدى ما ترك من أثر في تحويل الفكر

أو توجيهه او تلقيحه باللقاح الذي يقدر له ان يخلق في نفوس قرائه ما كان يقصد به اليه لم يلق الا كتابات تطول وتقصر على محض كلام هو كل ما لا حاجة ببلدنا اليه لان اصحابه يزورونه على نفوسهم ويختلقونه اختلاقا محاولين ان يصبحوا به من طبقة الكاتبين لا غير هذا وانهم ليخطئون جدا في محاولة الوصول الى لقب الكاتب او المصلح او المفكر من وراء هذه المحاولات . وما هي بمحققة من ذلك شيئا الا ان تنعكس دليلا على انا نجهل طبيعة الفكر الذي يقود وخصائص الكاتب الذي يصلح ونغرر بانفسنا ونستخف بقرائنا ونخادعهم عن حقيقة ما نحمل في انفسنا من هواء فلا نطلب اليهم ان يتلمسوا بايديهم اثر الفكر الحي فيما عند غيرنا من حياة .

ولو قد فعلنا هذا ونفضنا ايدينا عن الكتابة لأعنا على بلوغ هذا البلد ما يدفع عنه الكسل والفتور والموت الفكري الذي جنيناه عليه .

ولكن افليس من طريق لان نستخلص لنفوسنا القيادة الفكرية الصادقة التي تلهب عليه الحياة نارا عقلية يضرمها التعهد ويذكي من وقدتها الانقطاع الى العمل في الهابها كلما خبت بتقديم الوقود وبذل الجهود .

اعتقد ان ذلك سهل ميسور ان استطعنا ان نستخدم «الوسائل المجدية في استجماع امر هذه القيادة » ، ولكن الصعوبة في ان هذه الوسائل ليست باليسيرة الهينة حتى في هذا البلد الذي يخيل الى الكثيرين ان خلو الجو فيه من الافكار القوية معين على ان يبلغ الانسان منه الى ما يريد من قيادة وتأثير . على ان الطور الذي تمر به بلادنا الآن يجعل الوصول الى قيادة فكرية يناصرها

الجميع ويخلص لها الكل أمرا أعسر مما نتصور له من عسر ومطلبا ان يتحقق فانما بعد عمل متواصل وجهاد وصبر شديدين ـ اذ ان المرحلة التي تقطعها بلادنا اليوم هي مرحلة الغـــرور الكاذب الذي يصاب به الجاهل فما يكون اشد عليه منه في الوقوف به حيث هو يعطي نفسه من الثقة ويسوغها من الكمال وينتحل لها من الرشد ما يملؤه استخفافا بكل من يتقدم ليأخذ بيده مما يتردى فيه من ظلام .

واي الناس ممن تلاقي وتعرف وتصادف من لا يرى انه غني بمعارفه راض بوفرة نصيبه من الفكر قانع بما حصل عليه من ثقافة لا مزيد عليها مطمئن الى ان في مكنته وحده ان يقود البلد في طريق الفكر حتى يزحم به مسالك الفلسفة والعلوم والآداب .

وحتى الجهلاء من سواد الامة يأنسون في اعماقهم الى ثقة تتهم المفكرين وتتحدى المصلحين .

وهذه الحالة هي كل ما يجعل أمر القيادة في السودان أسمى من ضعف انهم يعيشون فيه ويترددون في سبيله ويختلفون الى
من ضعف انهم يعيشون فيه ويترددون في سبيله ويختلفون الى
مجامعه كان مجردوجودهم فيه يجعل من المستحيل ان يعترف بهم ويطمئن اليهم في أمر من اموره الفكرية .

ولكن مع هذا فلا بد لنا من قيادة فكرية محلية تدفع فينا الحياة وتبعث فينا القوة وتروضنا على حرية الفكر وتسلك بنا في حياة ادبية رافهة الصور مملوءة بالسحر والفتنة والجمال .

ولا شك ان هذه القيادة لن تخلق خلقا ولن يقلدها عضو واحد من هؤلاء الناس ، وانما هي عمل وكفاح ومنافحة وسلطان تكونه

شتى عوامل اليقظة الفكرية من فرد او افراد تميزوا بهذه اليقظة واتصلوا بالوجود اتصال فهم ومعرفة وتفسير ، وافرغوا في رؤوسهم نفسية الامة وعقلية الشعب كلـــه واخلصوا له الولاء واصدقوه العمل .

ويومئذ يقودون الامة مرغمة او غير مرغمة الى مثلهم وغاياتهم ويصرفونها على مختلف الاوجه مؤثرة فيهم متأثرة بهم بالغين بها المرفأ الامين من مرافىء الحياة التي يصنعها الفكر ويتأله فيهـــا بسلطانه .

واذن فلا مطمع في هذه القيادة لمن لا يعرف اولا كيف يقرر سلطانه الفكري ويدل على موضع الحياة والقوة والقهر منه : فماذا اعددنا لهذا من وسائل واساليب ؟.

الآثار الشعرية المبهمة

(نشر بالعدد الثاني من مجلة « امدرمان » .٣ـ٩ـ٣٦)

كم من الشعر ما لو حاول القارىء ان يفهمه عن غير طريق روحه لم يكن موفقا في فهمه او الاستمتاع به .

ولكي يصل منه الى نشدته من المتاع واللذة فان حاجته الى نصيب غير قليل من (الوهم) الشعري شيء لا بد منه لمن ينشد هذا المتاع .

فاذا انتهى اليه وفتح اغلاق نفسه يستقبل ما ينهمر عليها من صيبه السحري لم يجد لديه يومئذ ما يجعل في حدود استطاعته ان يعرف من اي اللذاذات تكون هذه التي يحس لها اثر السحر ولكنها ليست به .

فقد تكون نشوة او طربا روحيا تجهل انت من بواعثه اكثر مما تعلم اعني انك تعرف انه من هذه القطعة الشعرية الرائعة وكفى .

ولكن لا تدري ابدا حقيقة ما اثارت هذه القطعة في دمك من الوساوس والاوهام التي تزحم عليك نفسك ثم لا تلبث ان تبني في كل خلية من اعصابك هيكلا سحريا عجيبا تملؤه الخيالات وتعمره احلام الشعر .

وانت بعد على ما تحس من زخرة كل هذا وثروة معانيه وجمال

اثره في نفسك اكثر حصرا ووعيا من ان تحمل هذه الدنيا الغامضة في كلمات من اللغة لتدفع بها الى هذا الفضاء ، ولترفع عن مشاعرك ذلك الضغط السحري المحير الذي تلذه وتشقى به .

وتلك هي الآثار الشعرية المبهمة التي نعنيها ونتوجه اليها بهذا الحديث .

وحتى الحديث في هذا لا يكاد يخلو من عوارض الابهام لما يمتنع به من مغاور وانفاق في مسابح الاحساسات القصية التي تعيش في (ظلام) النفس بعيدة عن سيطرة هذا الفكر الذي يجد من نمائها ويبدد من كثرتها كلما وقعت تحت وعيه او اتصل بهامنور منه ... حتى هذا الحديث وحي اثر لن يقوى احد على استيضاحه بالهجوم عليه في مكمنه هكذا مرة واحدة وانما يأخذ منه بالمحايلة ما يأخذ ويفر من بين يديه منه ما يفر .

ولكن هذا الغموض لا يمنع ان تستوضح منه الانظار ـ بعض الشيء ـ ما لهذه الآثار الشعرية المبهمة من قيمة في تكوين النفس تكوينا داخليا خفيا يأخذ في الجلاء والوضوح بقدر ما تأخذ هذه الآثار في الغموض والابهام ولا يمنع ايضا ان تستجلي ما لهذه الآثار من عمل اخلاقي غريب في مجموعة الصفات النفسيــــة للانسان .

والشعر الذي نقصد اليه ليس هو فقط ما يتردد في ظاهر النفس ويتقطع صداه في صفحتها .

وآثاره ليست هي هذه التي نتلمسها بلاغة وصونا وافتنانا في التعبير ومقدرة على التأثير الوقتي الذي يحملنا على الاعجاب بالشاعر يوم نسمع له شيئا من هذا ثم لا نكاد نحفظ بشيء من الاثر في الاعماق ما يستحيل لقاحا سحريا لحسنا الخفي وشعورنا

المبطن الذي ان قوي ونمي واصطلح مع الفكر كان خير معين على بعث الحياة الادبية الهائلة المدفونة في دمائنا .

والحق ان ليس اعجب من هذا الحس البشري الخبيء تكمن فيه التأثيرات المتباينة لشتى المشاهد والمناظر والقرارات فيكون لكل منها مخازن واغوار وثقوب واعشاش يستفرخ فيها ويتجنح ثم ما يزال يضرب باجنحته جوانب النفس حتى يضرم فيها اشواق لا تبردها قراءة ولا يكسر من حدتها شيء .

فاذا كان الشعر هو بعض ما ينزل هذا الحس فان ثمة ما يقف دونه العجب وتنتهي عنده الدهشة .

هذا الحس الذي تملؤه حياة واحدة ليكون اكثر افتنانا في تلوينها من الحياة نفسها وبحسبه منها ان تمده بالاثر الواحد ليصنع منه ما لا حصر له من الصور الخفية والاثار المتنوعة والالوان المختلفة التي لا توجد في حقيقة الحياة والتي يحمل رسالتها الشعر موفقا في بثها بين الدماء الشاعرة فتختلف اثاره فيها قوة ووضوحا ولبسا وابهاما .

أما ما اتضح من هذه فهو محدود النتيجة معروف العمل .
واما في كثير مما انبهم منها ما تقوم به حقا مهمة الشعر .
وهل هي الا مهمة خلق وتجديد ... تجديد للقوى الانسانيةالعليا في النفس . وتنبه للمشاعر الشريفة في الاعصاب وسموبالروح الى حياة ملائكية بحتة .

وكم نفس استطاع الشعر بلينه ويسره وموسيقاه وغموضه وشدته ايضا ان يغير منها كثيرا في ساعة استعداد خفي للانتقال المفاجيء من شعور الى شعور . ومن هنا دائما تكون الآثار الباقية التي تتركها قراءة قطعة شعرية رائعة في نفس احدنا فلا يكاد

ينسى وقعها واستقرارها فيه وما اثارت يومئذ في دمه من خفة وطيش او هدوء وتفكير او تقبض وانكماش او اي الآثار مما تفيض به قطعة الشعر .

يذكر كل هذا ويختزنه في فمــه ملفوفا بغواشي ظلام خيالي لا يمكنه من استيضاح كل ما هنالك ، ولكنه يلمح له بواحــدة واحدة من مختلف الآثار الذهنية ويطل به في ثقوب نفسية مبهمة الصور الا قليلا مما يتلمح فيها من ضياء الذكرى ، وكل لذة الشعر انما هي هي هذا كانما اتبعت الشعر ليزود النفس بهذا الضرب من الحياة التي ان لم تجدها في الشعر الراقي لجأت اليها في الاساطير الملفقة ... وقيمة هذه الآثار في تكوين النفس وعملها في مجموعة الصفات الفردية شيء تلمسه لمسا لاول ما تتصل باحد هؤلاء الذين يستكثرون لانفسهم من قراءة هذا النــــوع ويقصرون جهودهم على استقطاره من بين حنايا انفسهم الزاخرة بالوساوس والاحلام فهم يستبدلون بنظرتهم العابرة في كل شيء نظرة متريثة بطيئة معللة تفلسف فيما ترى وما تلمس وما تحس ولكنها فلسفة يسندها الخيال في اغلب جوانبها اللعينة .

ويأبون الا ان يفهموا الحياة هكذا شعرا من فرعها الى القدم .

يؤثرون دائما الصمت ويحرصون على الحديث الى دخائلهــم وطواياهم اكثر مما يطيبون به مع مخلوق حتى الاحباء بل ليس لهؤلاء في الواقع حبيب بعينه ، وان كان فهو «شيء» لا يمشي على رجليه ، ولا يضطرب بين ظهرانيهم. شيء لم يعرف بعد ، مجهول ، لا شكل له فيما يرون من هذه الاشكال .

وهؤلاء نوع خاص من الشعراء يعيشون باوهامهم المهذبـــة عيش المتصوفة الاطهار .

وذلك كما ترى تغيير هام في مجموعة الصفات والاخـــلاق وشذوذ انساني عجيب في تكوينهم النفسي لا اصل له الا ما تدفع به في مغاور شعورهم هذه الاثار الشعرية المبهمة .

القمر والزهر
واثرهما في الشعر العربي

(نشر بالعدد الثامن من مجلة (ام درمان) في ٣-٩-٩٣٦)

ذهبت والبدر - وقد والله هذه ليلته الرابعة عشر - يتحدى الشمس بما يفيء علينا من نور وظلال ولكن اي نور مما يتطرى به القلب ويندى به الحس ، ولكن اي ظلال مما يغير بها طائف خفيف من الشعاع كأنه الحكم الهادىء الرقيق تسري به في جنبات النفس سنة خفيفة هانئة ، ومضجع سعيد رافه . ذهبت الى احدى حدائق الخرطوم في امسية كانها مما زخرف الامل الحلو ووشى الخيال الشاعر . وقد قطعني فيها عن المضي الى داري مشاكل ما انا بخال منها ابدا كلما اقترب على المجلة الاوان ولامسها احد طرفي الشهر .

فبقيت حيث انا ، حتى اذا ضقت بما في المطبعة من عجيج وحركة خرجت الى حيث انا ذاهب الآن معتزما في نفسي كتابة الموضوع الذي ارى ان قد تأخر واخذت منه المشاغل حتى لكاد تفيتني اياه .

وكنت يومئذ احمل في رأسي فكرة تامة عن الموضوع . وكان هو ان تهيأ واستقام من تلك التي يعدها بعض القوم جافة لانها من نوع ما تكره عليه النفس التي لم تنعقد بينها وبين امثاله الفة ويؤخذ عليها الفكر اخذا عسيرا ان كان القارىء من اولئك الذين

يحيون الحياة ملساء رخوة لا عسر فيها ولا اخشيشان . بل من اولئك الذين قد يضعون حتى كلمة اخشيشان هذه في قائمة ما ينبغي ان تعفى النفس من الحمل عليه او الاتحاف به ، لانه يكلفها سماع ما لا تستأنس به أو تطيب له .

وكنت لا ارى بدا من كتابته لانه يقوم مني مقام الايمان ويحتل مني مكان العناية . فلا خلاص منه الا بان اتوفر له هذه الساعة حتى انفض يدي منه الى غيره من شؤون المجلة ، ولكني انسيت فجأة كل هذا ، انسيت حتى الموضوع وحتى الناس وحتى المجلة وانصرفت الى ما قوي في نفسي من هذا المرض الشعري الذي اعيذك من ضراوته يوم يطغى ويعنف .

فليس من تعاويذ السحرة ورقي المطببين ما هو مستطيع بحال ان يذهب به عني . فانا مأخوذ منه بكل اطرافي مذهوب بي فيه بكل وجه مما تتلمح فيه قطرة من جمال شعري قريب او بعيد اظل اتاول لها في الفكر الصلة والدلالة والغاية واطلب فيها ما يطلب في الكلام من مجاز وكناية .

واستعين على فهمها بوسائل هي في الواقع اكثر منها شماسا وابعد مطلبا ان اخذت على غير وجهها في حقيقة الوضع .

والا فماذا في قواعد البيان والبديع وما الى البيان والبديع مما يصح ان يكون مرجعا في هذا او عونا عليه .

ولكن لا فان التجربة الناجحة هي التي اغرت بهذا من قبل . لقد اخذت مكاني في الحديقة من بين تلك المقاعد التي احسدها على طول ما اقامت وتقيم بين هذا الجمال المفاض والنعيم المفرغ وقذفت بما في يدي جانبا وكان اضبارة من ورق ابيض .

وتعرفت الى جوانب المكان فاذا هو خلو الا من اوانس من اولئك اللواتي في كل ما يتصل بهن مشابه من هذه الحديقة بهجةوشبابا ونضرة والهتني طلعة البدر وروعة الزهر وتزاويقه واصباغه عما امعن له من شأن فاذا انا احلم وافيق ولكن كما يفيق المسحور واهنأ بهذا الحلم والذه الوانا من اللذة التي ما ذكرت اني مفارقها الى لقية اخرى الا وامتلأت نفسي لها الوانا من الحسرة والالم لان داري ليست مما تنبت الزهر وان اطلعت القمر ! وهي بماانشقت عنه وزهت به من شجرتي الحناء وتلك التي لا اعرف لها اسما والنخلة التي غرست يوم ولدت تسعى لتقنع بانها مطلقة الزهر ايضا ان اردتها عليه .

ولكن لا يا داري فانهم يقولون ما كل هند هند !!

وركبت رأسي نشوة جعلتني اضيق ما اكون بافسح ما كنت له . فانا الآن لا اقصر همي على ان أتملأ من هذا الجمال والحسن وكفى . وان بي لطماحا ولهفا الى شيء لم اتبينه لعله ذلك الخاطر العجيب الذي يقول ابلع هذا واستنش ذاك وخذ البدر في يدك وسر حيث شئت !!

لعله من هذا فما بعجيب على مرضى التسعر ذلك وليس أجن منهم في عرف الواقع ينعمون في موقع الايمان منهم بما يسخر به الاطفال في موضع الكفر .

ولا استبعد ان يكون هو وان لم احاول ان اخبر بنفسي كيف اطوي الحديقة واستخلص الى يدي القمر !

وتفقدت نفسي فاذا انا فاغر الفم موضوع الاعضاء على نظام لو نفخ فيه لطار ، بل لطرت أنا . اذ كنت مستغرق الشعور كمن يستمع الى موسيقى ليست هنا فهو في جلسته « موزون » بها

على تقاطيع الشعر ومختلف انواع النغم .. وتأبى « المضايقات » الا ان تلحقني حتى هنا .

صديق خبيث ظل يتأثر في على غير علم مني حتى اقتحمت الحديقة فاقتحمها هو واضطجع منها جانبا في العشب وخلى بيني وبين ما اريد حتى اذا رأى اني اطيل في المكث ولا اكتب وفي ضوء القمر ما يمكن من هذا مشى العزاء لئلا اراه ووقف خلفي منشدا :

خذ من محيطك ما تبغي فان بـــه
ما شئت من قمر حلو ومن زهـــر

قلت الا قاتلك الله أفانت هنا . ومن قال لك اني جئت لاكتب ومن اين لك ما انشدت .

قال عفو البديهة ولا والله ماتهيأت له ولا تعصرت فهل لك ان تنظم في هذا قلت لا ولكني ساكتب عن القمر والزهر واثرهما في الشعر العربي من يوم ان اتصلت به ايامه المترفة ودرج على ضوء من فتنة فارس فيما تزخر به قصورهما من هذا النعيـــم والترف ولم يكن من قبل يتوفر في هذا الا ما لا غنية فيه لاحد .

نعم كانوا ينعمون بهذا البدر اكثر مما ننعم به نحن ينعمون به على ظهور النوق الليالي الطوال وعلى مضارب الخيام وكم هنالك للبدر من سحر وفتنة .

ومن لم ينعم بالبدر في الصحراء فهو لم ير البدر [illegible] عمره غير ان اكثر الصور الادبية التي تشير اليه وترمز الى سحره محدودة ضيقة فيها بساطة البدوي وجفاف بيئته. ولو اجتمع حتى اليوم من الشعر ما لا يرمز البدر فيه الا الى وجه المرأة لاستـــوى

مجلدات ومجلدات ولو اجتمع ايضا ما لا يمثل الزهر فيه الا خدور الحسان لاستقام مكتبة باكملها .

ولم يفتح الله حتى الساعة على كثير من الشعراء ما يستخلصون به من طلعة القمر والزهر الا ما معنى عليه البدوي في جاهليته الاولى .

وكانوا ينعمون ، ايضا بهذا الزهر ولكن نعمة البدوي بما يرى انه متاع الحضر حتى اذا اطعمتهم فارس صنوف حلواها بالهجرة ، وارتهم مباهج دنياها بالفتح ، ولقحت الذهن العربي القوي بخصائص ليست له من قبل واضافت اليه من رحابها من نضج في الادب الناس فارس وخلاصة ذهنها الخصب وحياتها الرافهة كان لهذا الشعر نبأ آخر في زعمائه المجودين وامرائه المترفين ومشاهيره من صاغة الكلام ، وكان لهذه الحياة العربية نبأ آخر ايضا يفسره الانقلاب العظيم الذي طرأ على الجزيرة فنفض في اول اعماله من الخمول والصمت واشعلها حركة داوية لا تسكن الى متع الحياة وزخرفها الزائل فاذا ما اطمأن الاسلام هناك واذا نفذ الى الاصقاع والممالك وهيأ مكانه فيها وانكمشت الخلافة الرقيبة المحافظة الصارمة بدأ يومئذ العهد الجديد يتفتح عن مباهج الحياة .

فهؤلاء ندماء الخليفة في قصره معه ، واولئك مغنوه وتكلم جواريه وغلمانه وخدمه وحشمه وشعراؤه ومفرحوه ومدخلو السرور الى قلبه وفيما بين هذه الاحياء تنتشر مجالس الشباب المترف ومجامع اسماره ويستكثر الامراء والولاة لانفسهم من المتع واللذاذات ... كل هذا يكون فتنفرج الدنيا عن كنزها الخبيء ومتاعها المحجب وتفيض النفوس بالادب المترف الجميل .

ويحرص الامرا ءوالعامة على اجتناء اللذة الادبية مما يستلهمه لهم الشعراء من شتى مظاهر الوجود التي لم يعودوا يقنعون منها بشيء قليل ومضى الشعر يأخذ من ترف الدولة وفراهة الحياة ورفهها ما يأخذ ، وكانت الصور المعزية الفاتنة ، والتصورات المحببة الجميلة ، يمدها الحسن الشائع في الوجود ومن بينه بل وفي مقدمته هذا القمر والزهر . وشاعر امير كابن المعتز يمثل لنا اهم نواحي هذا الادب المترف بتصوراته والتفاتاته العجيبة في كل ما اتصل بحسه الرافه .

وللقمر عند ابن المعتز مكان العناية والايثار فهو يتطلع اليه هلالا كالزورق الغض المثقل ، وما يزال به يسايره حتى يعود به من المحاق كأنه وقف أي (دبوس) من العاج :

في ليلة أكل المحاق هلالها حتى تبدي مثل وقف العاج وفي ارجوزته البستانية اطرف ما تقرأ في وصف الزهر وتشابيهه واغرب ما ترى من حدة تصور ابن المعتز وبعد التفاتاته الذهنية.

ولقد اثارت الزهور بين كبد الشعراء مناظرات ومساجلات عبقة بهذا العطر الخالد فخلفوا لنا ثروة من ادب الورود هي اليوم اصدق ما يحدث عن حياة الفن والجمال الخالص عندهم وعن مجالس الانس ومجامع اللهو والشرب ، وما كانت تزخر به من ظرف ولباقة وافتنان . وابن الرومي كان دائما يأخذ بحظ غير قليل من هذا وهو معروف بحبه للنرجس وانتصاره له وقد قال في نرجسة : —

ظلت تسامرنا وقد بعثت ضوءا يلاحظنا بلا لهب

وعي بن الجهم وابو الفضل المكيالي الذي يقول في وصف الشقائق :

كـــأن الشقائـــق اذ أبرزت غلالـــة داد وثوبـــــا احـــم
قطاع من الجمـــر مشبوهـــة فاطرافهـــــا لمـــع من حمم

وابو فراس الحمداني الذي يقول في الجلنار :

وجلنـــار مـــشرق عـــلى اعالي شجره
كـــان في رؤوســـه احمره واصفـــره
قراصنة مـــن ذهب في خرقة معصفره

وابو الفتح كشاجم الذي يصف النرجس فيقول :

ونرجس زاكي النسيـــم بض مثل العيون رنقت للغمـــض
ترنو فيغشاها الكرى فتغضي

وابن هاني الذي قال في زهرة رمان وقد شارها الشائر قبل اكتمال النضوج :

وبنت ايـــك كالشباب النضر كانها بين الغصـــــون الخضر
جنان باز أو جنــــان صقـــر قد خفقته لقـــوة بوكــــــر
كأنما سحت دما من نحــــــر أو نبتت في تربة من جمـــــر

وغير هؤلاء ممن تفتقت مشاعرهم وانشقت لهم الدنيا عـــــن مفاتنها فوصلوا منها الى سر الجمال ونفذوا منها الى اعماق الفتنة. ولولا ما ارى من ضيق الصفحات لذكرت للقارىء هنا اروع ما دار حول القمر والزهر من شعر حتى يتبين ان لهما ثلث الادب العربي .

وبعد : فلقد صرفني القمر والزهر ليلتئذ عما قصدت اليه ، حتى دفعت الى القارىء بما لم اقصد ، والقيت الى فرصة اخرى ما اريد ... وكم للقمر والزهر من فتنة واغراء !

المعهد العلمي في ربع قرن

(نشر بالعدد الثالث من مجلة (ام درمان) في ١٥ـ١٠ـ١٩٣٦)

في ربع قرن .

ويا لعظمة القرن . لقد هال حتى وزع ارباعا . فما عدا ان اصبح اربعة اهوال في واحد منها ما يملأ الفم .

ويزحم الاذن وتنقطع له الانفاس ، ولقد هال حتى عاد في روعته كالاسد كل شلو منه حقيقة تامة من حقائق هذا المخلوق في قوته وبأسه .

وذلك هو هذا بعينه يوم تقول (ربع قرن) فما تعتم ان تدفع في النفس بعظمة هذا الجزء من الزمن الذي عينته بخمسة وعشرين عاما قطعت ما بينه وبين عظمة القرون !

وان بعض الناس من هؤلاء الذين يهولهم اسم « الجنيه » ليكاد لا يصدق ان مدلول خمسة وعشرين قرشا هو بعينه مدلول ربع الجنيه الذي يكسبه الهول في نظرهم انه اقترن باسمه فانقلب هو أيضا الى حقيقة الجنيه الكبير !!

وانا والله ايضا يوم التفت بفكري الى اني طويت من عمري ربع قرن اشتد في حساب نفسي كم احرزت وكم اصابت اكثر مما لو مر بخاطري اني اسجل بين الاحياء الان خمسة وعشرين عاما فقط !!

تلك كلها توهمات الفكر التي يختلف بها بين كليات الاشياء وجزئياتها حينا فيمد هذه من تلك حتى يلبس بينهما بعمل لفئة واحدة ، وكم لهذا من قيمة في خلق الثقة والاعتزاز ... ذلك الاعتزاز الذي كان جميلا يوم القى الى صديقنا الاستاذ العالم الشيخ ابراهيم يعقوب ان يدعو الى الكتابة عن (المعهد العلمي في ربع قرن) .

والاستاذ من الاركان الذين خرجهم المعهد العلمي فشغل بعضهم مناصب التدريس فيه ، وانصرف بعضه الى المحاكم ، وانفرد هو مع اخ له آخر بالتدريس في معهد الخرطوم . فليس بدعا ان يحرص على ان يؤرخ للمعهد الذي نشأه وسوى منه عالما ينضح من غلة هذا البلد الظامىء وينشر بين ابنائه نور العلم والمعرفة والايمان .

لقد كان ذلك اقل ما نرقبه من اخواننا طلبة المعهد وخريجيه في وقت احوج ما يكون المعهد فيه الى حركة كهذه تحفظ عليه آثاره وتدعو له بين هذه الامة التي يتداركها الله في وقت يجهل فيه بعض الناس ان في السودان معهدا علميا خرج حتى الساعة من علية العلماء المحققين عشرات وعشرات وما تزال بين يديه الآن مئات العلماء من الشباب الذين ليس بينهم وبين هـذا الشرف العلمي الا ان تهبهم المشيخة (اوراق الشهادات) .

وحقا لقد كان لكلمة الاستاذ ابراهيم التي نشرناها له في عددنا الماضي صدى جميل في نفوس من يحرصون على ان يكون للاعمال الكبيرة في هذا البلد سجلات تؤرخ لها ما أسدته للبلاد من خير ونور سواء في ذلك دور العلم وغيرها من كل ما يدخل في دائرة الاعمال الكبيرة .

ولا شك ان القيام بهذا يعد عملا كبيرا أيضا لما يترتب عليه من امر النهضة التي تسير على بينة وتقوم على اساس وما ستعقبه من فضيلة التنبه العام لانماء هذه الاعمال ورعايتها حتى تبلغ مبلغهما من المنعة والقوة .

وفكرة الاستاذ ابراهيم ليست حديثة العهد ولا جديدة على الاسماع فلقد كان يتحدث بها الي منذ سنتين طالبا الي في ثقة الصديق الذي له بالمعهد نازع عرق ان انهض بهذا العمل وحدي بعد ان اكون قد جمعت له من الوثائق والمعلومات ما يكفل لي القيام به على أتم وجه .

وكنت أرى يومئذ ان يوكل هذا العمل الى لجنة تبحثه وتتقرى جوانبه حتى تستوثق من صحة ما تكتب ، معتمدة على الوثائق الرسمية المحفوظة بادارة المعهد فيما يختص بالناحية الحكومية والاهلية منه وفيما يتعلق بانشائه وكيف سار وكم يدا اسبغ على هذا البلد ، وما الى هذا مما يحفل به تاريخه المجيد. وسيجر الحديث عنه بالطبع الحديث عن رجالاته الذين نهضوا به نهضته الحاضرة واتصلت حيواتهم به حتى لتكاد تكون قطعة من تاريخه لن يكون فصلها عنه الا اقتضابا وبترا في سلسلة حاضره وماضيه .

وسيتناول كثيرا من الجوانب التي يبعثها الكتاب يوم يتاح لهم ان يجيبوا داعى الله والوطن في تنفيذ هذا الامر الجليل .

ولعلهم موجهون غدا العزائم الى تحقيقه خدمة للعلم في بلد ما ينقصه مثل الدعاية للعلم .

قلت ان الاستاذ اسر الي بهذا الحديث منذ سنتين ، وقدطوينا

الحديث على أمل العودة اليه . ثم التقينا اخيرا وقد شغلت الفكرة مكان العقيدة من نفسه ، واذا كلمة بين يديه يكاد يسيل من اطرافها عنوانها العريض ولفرط ما يعجل الاستاذ في غايته منها بدأها من نهايتها صاعدا في غير المألوف من محايلة القارىء حتى يستأنس بما يلقى اليه ، وانما يفسر ذلك كله حدة الفكرة وقربها من نفسه هذا القرب الذي يقطع على الكاتب طريق اللف والنشر والتطويل .

ولقد بلغ ما اراد تبليغه من دعوة الكتاب والمتصلين بالمعهد الى القيام بواجبهم نحو هذه الدار ، فما موقف الكتاب والمتصلين بالمعهد من هذا النداء ؟

لقد اصبح لزاما على كل من توجد لديه معلومات قيمة طريفة عن المعهد ان يدلي بها حتى يعين على وضع هذا السفر عنه في مدى ربع قرن ليس بالشيء السهل هنا — ولو قد هيأ للازهر مثلا ان يجد مثل هذه الدعوة له في فاصلة كل خمسة وعشرين عاما لاستقام لنا من تاريخه اليوم اربعون مجلدا كل واحد منها موسوعة شاملة للعهد الذي كتبت فيه من كل ما يتصل بالازهر من سير وتراجم وشؤون فينبغي وقد تنبهنا نحن الى هذا الا نبطىء في ادراك ما افلته الازهر وعاد يستعيضه بعد عشرة قرون لن تستطيع مصر كلها مهما بذلت من جهد ان تسترد ما فقدته فيها مما لو كتب في وقته لكان اليوم تاريخا لمصر كلها لا للازهر وحده ، لما كان له قبل هذا من قوة الاتصال بالحياة المصرية والفكر المصري .

وعلى اية حال فانا لم نشك يوما في فائدة ما ندعو اليه حتى نقصر الجهد على تبيين جدواه اما من حيث ما يعنينا خاصة ويتصل

بنا من هذا النداء وهو ان نصدر عددا خاصا بالمعهد فنحن ما نرى بأسا من العمل في تحقيق ذلك ولكن وراء اقتراح ايضا ان تم فقد تم كل شيء .

فالمجلة كما يعلم القراء لم تستوضح طريقها بعد ، وهي على حداثة عهدها تسير على شح في المادة يحول بيننا وبين عمـــل كهـــذا .

ولكن لكي نوفق الى اصدار هذا العدد الممتاز الذي ربما وقع في مائتي صفحة مثلا او أقل او بقدر ما يصل الينا من كتابات ، نرى ان يكون ملحقا للمجلة شبه مستقل عنها يباع ثمنه الذي نقدره له فيما بعد او قل بخمسة قروش على الاقل تدفع مقدما ضمانا للشروع في هذا العمل وحينما يصل الينا المبلغ الـذي يمكن من اخراج العدد او الكتاب على الاصح نشرع في اصداره باذلين كل ما نستطيع في سبيله من جهد .
فما رأي القراء في هذا ؟

سننشر كل ما يصل الينا حول هذا الموضوع مما يرى القراء ثم نعلن عن قبول الكتابات وفتح باب الاشتراك استعدادا للشروع فيـــه .

ال فلان وال فلان

(نشر بالعدد السادس من مجلة « ام درمان » بتاريخ ٣-١١-١٩٣٦)

آل فلان ـ كلمة اخذتها حياتنا في بعض ما اخذت من تقاليد ووقفتها على الاغنياء ومن في حكمهم من الوجهاء واصحاب المناصب . وهي يا صاحبي كلمة عربية فصيحة لم يختص بها اللسان العربي غنيا ولا فقيرا وانما وضعها واشاعها بين هذا وذاك .

كما ان لله في خلقه شؤونا فان له في هذه اللغة شؤونا ايضا اذ لم يكن لهذه الكلمة شأن من قبل الا كما كان لكل هذه الكلمات الاخرى فماذا خرج بها من وضعها المتواضع واجراها مجرى الكلمات الكبيرة التي تهول والتي ترهب واصبح لاحق في استعمالها لغير هذه البيوتات الكبيرة .

أما الفقير ، اما رقيق الحال فلن يكون الا معرضا نفسه للهزء والسخرية يوم يحاول ان يقول عن اهله « آلي » ، ولو كانوا في مثل شعر رأسه عددا .

واما اغنياؤنا ووجهاؤنا فهم يرعاهم الله ويحفظ خزائنهم قوم لكل منهم « آل » . ولكل منهم اسرة . هل الدنيا باسرها قاعدة قائمة كما يخيل اليك انت ان كنت ممن لم يعرف كثيرا ولا قليلا عن هؤلاء السادة الاغنياء . والواقع ان بعض الاغنياء لا يد لهم في خلق هذه الالقاب وانما هي بعض صحفنا التي تروج لهذه الاوهام حتى لقد عدنا نسمع في كل يوم التبشير بآل جديد في اعلانات الشكر والعزاء وحفلات الزفاف والمآتم وغيرها ، ولعل صحفنا مقلعة بعد اليوم عن هذا الاتكيت الجديد من فن الدعاية الكاذبة .

سلحفاة شركة النور

(نشر بالعدد السادس من مجلة « امدرمان »)

وما ينكر القارىء من هذا العنوان ؟

انه لصحيح ليس فيه ما ينكره احد من الذين استقلوا ظهر هذه السلحفاة لا للبعث واللهو وقتل الوقت ولكن للعمل والجد وكسب الوقت على ان سلحفاة الشركة هذه لا شأن لها بهذا ولا بنا نحن بل سواء عليها أكنا متعجلين ام مطمئنين فتظل على حد ما يقولون « تمشي الهوينا كما يمشي الوجى الوجل » .

والله وحده يلطف بك من الحرج والضيق والملالة ساعة ينقطع زحفها في احدى محطات المقابله . انك لا تملك يومئذ ان تصرخ ان كنت من الصنف العصبي وكنت في الدرجة الثانية وفي نحو الساعة الثانية مثلا فالشمس ليست ببعيدة عنك . انك لتكاد تتناولها قاعدا حتى لكأنها ـ تابعة ـ لشركة النور لا يحجبها عن زبائن الشركة ركاب الدرجة الثانية غير حجاب المغيب .

وسلحفاة الشركة هذه اذا امسى عليها المساء رجع مستخدموها ينفضون على مكتب خزينة الشركة أكياسهم التي لم يبق فيهـا مكان يسع قرشا آخر .

كل هذا وشركة النور لا يهمها شيء من راحة الركاب ولا من وقتهم ما داموا يدفعون لها الاجر كاملا غير منقوص .

فالى متى نحن صامتون على هذا ايها الناس !

أفليس ثمة من عمل حاسم ترغم به هذه الشركة على ان تعدل من خطتها هذه وتعنى براحة هؤلاء الركاب الذين لا يغادر الواحد منهم الترامواي الا بعد ان يلعنه في نفسه الف لعنة .

على ان هذه الراحة هي حق من حقوقهم التي يجب ان تتوفر لهم فاذا غمطتهم الشركة هذا الحق فلانها تستغل حاجة الناس واضطرارهم اليها في الغالب والمضطر كما يقولون يركب المركب الصعب .

وعلى أية حال فنحن نعرض لشركة النور هنا بعضا من مطالب القوم كما سمعنا منهم راجين ان تعمل العمل السريع الذي يحدث عن اهتمام الشركة بزبائنها على غير ما علق بالنفوس من فكرة الاهمال : وهي ان تجعل الستائر الواقية لركاب الدرجة الثانية وان تعد مقاعد الدرجة الاولى بالمراتب حتى يكون هناك معنى لهذا الفرق بين الاولى والثانية وان تضبط من مواعيد ترمواياتها في المقابلات أو تتخذ الاشارة الكافية التي تدل على خلو الخط او عدم خلوه حتى لا يلحق الركاب ضرر من فوات اوقاتهم وان تمد من اجل مواعيدها فبدلا من ان ينتهي الترمواي في الساعة التاسعة مساء ينبغي ان يسير الى الحادية عشرة مثلا لانه الوقت الذي يمكن ان تقل فيه حركة التنقل وكثيرا ما يضطر بعض الناس للتنقل من الخرطوم الى امدرمان او بالعكس او الى الخرطوم مجرى فلا يجد ترموايا بعد التاسعة وهذا تقصير شديد من جانب الشركة نرجو ان تعمل على تلافيه .

وان تنصح الى مستخدميها ان يكونوا ظرفاء في معاملة الركاب وان يقصروا جهدهم ليضعوا الحد بين الرجال والنساء لان المشاهد الان ان شيئا من هذا لم يعمل به في الترمواي . فالنساء ينتشرن

في كل المقاعد هنا واحدة وهناك اخرى وهنالك ايضا وذلك ما لا يتفق والكرامة والحياء والدين ـ وان لا تألو جهدا في عمل كل ما يدعو الى الشركة دعاية خيرا من هذه في مقبل الايام .

الادب القومي والمسرح

(تعليق نشر بمجلة ام درمان)

منذ ان بدأ ادباؤنا القوميون يساهمون بنصيبهم في خلق الحياة الفنية المغرية، ويدفعون بموكبهم الحاشد الى حرم الفنون الرفيعة، ويزاحمون بمناكبهم القوية في معترك التأليف بدأنا نستعرض أدبا يحاول جهده ان يفاجيء سر الحياة في مكمنه الخبيء كما يفعل الادب القومي ، ويستلهم اسرار القلوب ليبعث بها اشخاصا متحركة على خشبة المسرح ، بدأنا نستعرض الروايات التمثيلية بلهجة القوم هنا ولغتهم الدارجة . ولا والله لم تقعد بهم دارجيتها هذه عن تبليغ ما يريدون تبليغه الى الناس .

ولقد حظي محرر هذه المجلة منذ ليال بمشاهدة «بروفه» احدى الروايات القومية واسمها فتاة المستقبل من وضع الشاعر القومي خالد افندي احمد سليمان وتخريج فريق العمدة الرياضي الناهض استعدادا لتمثيلها بنادي عطبره في ٣١ اكتوبر – اليوم – فلم يسعه الا ان يكتب هذه الكلمة القصيرة افصاحا عن اعجابه مما اصاب شعراؤنا القوميون من توفيق .

وانا لنأمل ان يعمل فريق العمدة في تمثيلها مرات ومرات حتى يشهد القوم هنا من فن الدعاية الحية لتعليم الفتيان والفتيات على السواء ما عساه مجد في لفت نظر الاباء والامهات لضرورة التعليم وتعليم الفتيات بوجه خاص .

كشف الستار

نشر هذا المقال الاول بمجلة « النهضة السودانية » ـ العدد ٢١ بتاريخ ٢١ـ٢ـ١٩٣٢

وقد علق عليه محرر المجلة المغفور له « محمد عباس ابو الريش بما يلي :

(لا نوافق الكاتب على اعتباره النقد (في اساسه) من اعمال التدمير فالنقد ضروري سواء في الاعمال والاراء والاقوال. وكاتب المقال بتصديه للعيوب التي يراها في المجتمع ناقدا قبل ان يكون كاتبا) .

توطئة

(١)

فكرت منذ امد طويل في الكتابة تحت هذا العنوان وقد اخرجت فكرتي الى حيز الوجود واعددت المادة الكافية للموضوع ولكن بعد ما ختمت المقال رميت به في سلة المهملات وخاطبت نفسي قائلا : « مالك والعالم » انك ان نشرت هذا الكلام سوف تقوم حوله ضجة فيمنعك القوم اغماض جفنيك ولكن بعد زمن ليس بالبعيد عدت الى فكرتي الاولى وقلت « دع عنك هذه الشكوك والاوهام واقدم على عملك ولا تبال وما دام القصد نبيلا فلا تأبه بتذمر عمرو ولا بغضب زيد » والكاتب في اعتباري مهما كان ضعيفا فانه افضل بكثير من القارىء الناقد للحقيقة الظاهرة وهي ان الكاتب يجهد نفسه ليدون كل مفيد نافع لمعاصريه ورائده في ذلك النفع العام والمصلحة المشتركة لمواطنيه وهذا بخلاف القارىء الناقد الذي يحصر جل فكره لاستخراج التافه من الخطأ والعثور على مواطن الضعف من الآراء والنظريات ثم تجده يلاحظ رفع المبتدأ ونصب المفعول والتعقيد اللفظي . والمعنوي الى غير ذلك من الامور التافهة التي يسهل على الكاتب توقيها — هذا فضلا عن ان الكاتب من انصار السياسة الانشائية والعمرانية بينما الناقد هدام من انصار التخريب والتدمير — هذا عندنا . وليس معنى ذلك ان نترك النقد جانبا ونهمله ان كان نزيها سيعود علينا بالنفع ونحن وان كنا لا نطالب بالكمال المطلق لانه لله وحده فانا نود ان نكون

بالقرب منه ما استطعنا الى ذلك سبيلا .

وللنقد النزيه فوائد عديدة منها منع الفاسد من الآراء والمبادىء من الانتشار بين الامة حتى لا تتسمم آراؤهم فيعسر علاجهم .
على هذا المبدأ سأبدي آراء وانتقد اخرى اراها غير صالحة وتستحق القتل في مهدها وما دمنا قد عزمنا عزما صادقا على النهضة فان الواجب يقضي علينا بتمحيص الآراء والمبادىء وفحصها تحت شعاع العقل قبل اعتناقها والعمل بها غير اني احذر جميع ابناء وطني من نوع واحد من النقد وهو انتقاد اعمال بعضهم « لأني أكرهه لوجه الله » . هذا ضعف واي ضعف ومعذرة ان سميت ذلك نقدا فما هو الا الحسد بعينه والحسود يبوء بالحسرة والندم ولا يصل بعمله هذا الى سؤدد ولا كرم .

الان اتقدم الى ابناء وطني بالمقال الآتي ملتمسا منهم ان يمعنوا النظر في محتوياته ويحكموا عقولهم لان حكم العقل اصدق وابقى وقد فات الزمن الذي تتحكم فيه العواطف على العقول وانتم على بينة ما تصدره العواطف من احكام قاسية يجدر بكل ما أوتي عقلا حرا وتفكيرا مستقلا ان ينبذها وينبذ اصحابها وما غرضي من هذا المقال الا كشف الستار عن بعض نقائصنا الاجتماعية وتصوير بعض معايبنا الخلقية .

بعد هذه المقدمة الطويلة التي لا مناص من اثباتها اقول :

اظهار الحقيقة :

نريد اظهار حقيقتنا الاجتماعية والخلقية فنرجع الى الصواب متى وجدنا خطأ اذ « الرجوع الى الحق خير من التمادي في الباطل » وربما اعترض واحد بقوله : «مالك والناس» فالى المواطن الكريم

اوجه هذه العبارة الاخوية : « لقد مضى الزمن الذي لا ينظر فيه الانسان الا لاحواله الشخصية ولا يكترث بما يجره الدهـر من ويلات على صديقه او جاره او مواطنه » . هذا العصر ولى وادبر فما لنا نبعث الموتى من القبور ولم لا نجاري عصرنا فنكون عصريين في متانة اخلاقنا وغزارة معلوماتنا ووفرة آدابنا ونبل عواطفنا واتقان اعمالنا لنكن عصريين عمليا لا تقليديا بلبس القبعات او ارتداء فاخر الثياب ـ كما ذكر احد مواطني من قبل .

لنكن عصريين في ارواحنا فهل في ارواحنا التي خيم عليها البؤس وتملكهـــا الجمود ما يبرهن على اننا نتمشى مـــع روح القرن العشرين ؟!

لمثل هذا يذوب القلب من كمد فلنقف قليلا كما قال انطونيوس في خطبته على جثة يوليوس قيصر لنقف هنيهة حتى يعود الينـــا الوجدان وحتى يرجع الينا الصواب ثم لنفكر في الاسبـــاب التي جرت علينا هذه الويلات فاردتنا الى اسفل سافلين فاذا ما وفقنا الى معرفتها فعلى الكل مناوأتها ومحاربتها بكل ما اوتي من شدة وصلابة لان التغاضي عن اسباب الدمار هو عين الدمار .

« ووضع الندى في موضع السيف بالعــلا
مضر كوضع السيــف في موضع النـــدى

مهمتنا الان اشهار السيف لمحاربة مواطن الضعف فينا فلنبدأ باشد الطبقات خطرا على مستقبل بلادنا .

حماة الاخلاق :

قوم مناا اخذوا يتظاهرون بالتقوى والورع جاعلين الدين وسيلة

لبلوغ مأربهم . وقد ساعدناهم على اعمالهم هذه حينا من الدهر اذ كنا نبالغ في احترامهم وكانوا يتمادون في تضليلهم وبهتانهم حتى صاروا يطالبوننا بما لا نطيق حتى اخذوا يحتمون علينا الا نفوه بكلمة عند حضورهم ولا نشعل سيجارة بمرأى منهم لان هذا قد اضحى حقا مقدسا من حقوقهم تحت عنوان « احترام الكبار » (وتأدب لمن رأى الشمس قبلك) الى غير ذلك من عبارات التضليل والتلفيق ومن العجيب ان نظل طوال هذه المدة نخضع لهذا الاستبداد ونأتمر بأوامره ونظن ان التحدث في حضرة من هو اكبر منا سنا ضعف اخلاقي يعيبه علينا قانون الاخلاق الكريمة وعليه نشأنا نشأة استعبادية تعوزنا الشجاعة الادبية والادلاء بالبراهين المنطقية نتلقى الاوامر والآراء كانما هي وحي يوحى لا كلام انسان معرض للخطأ والصواب كسائر بني الانسان .

اذ لكل عالم هفوة ولا يوجد كائن ملم بكل الامور متقن لكل العلوم . بارع في الفنون ، يجيب بحكمة ودراية على اي سؤال (يلقى عليه) ومن ادعى لنفسه هذه المنزلة فهو غر جاهل يريد التظاهر بما ليس فيه ، لان الانسان مهما تعلم وتثقف لا يتسنى له ان يحيط بكل شيء علما وقد قال فولتير : « لا يجيب انسان على كل ما يوجه اليه من الاسئلة في مختلف العلوم والفنون الا اذا كان غرا جاهلا يريد التظاهر بما ليس فيه لان الرجل مهما تثقف وتعلم فانه جد عاجز عن معرفة كل شيء .

حماة الاخلاق هؤلاء يتوارون تحت ثياب صارت الان بالية بعد ان خدعونا بها طوال السنين اما الان فقد جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا .

والحق يعلو ولا يعلى عليه . وهو خالد لا يدركه الفناء .

تراهم يتظاهرون بالعلم والورع والتقوى وليتهم فعلوا ذلك وكفونا شرهم انهم اعداء كل جديد نافع انصار كل قديم بال فمن اراد التفكير الحر أو حتى الشبيه بالحر عدوه ملحدا ومن ناقشهم فكرة او أبدى لهم رأيا قالوا عنه « انه قليل أدب » يحكمون بهذه الاحكام القاسية وهم عن عيونهم غافلون وفي ضلالهم يعمهون وعن حقيقة انفسهم لاهون . انك ان تراهم وتعجبك اجسامهم اما اقوالهم واراؤهم فمن الفائدة مجردة ومن الحكمة خالية ، عجيب ان ادعوهم حماة الاخلاق ولكن لا بد لنا ان نتساءل عن مصدر هذه التسمية التي نالوها عن جدارة واستحقاق !!

نعم ندعوهم حماة الاخلاق لانهم لا يبحثون ولا يتحادثون في تدهور اخلاق الشبان وفسادها وليتهم ضربوا لنا الامثال الحكيمة وبينوا لنا سبل الرشاد حتى نهتدي بهداهم . لم يفعلوا شيئا من ذلك بل تجدهم يبحثون عن قلة ادب هذا وعن سوء اخلاق ذاك وعن الحاد ثالث وسمعة رابع الى ما لا نهاية له وهكذا كل القوم لا اخلاق لهم اللهم الا اصحابنا حماة الاخلاق !!

ان التقدم في السن وزيادة الراتب الشهري الى غير ذلك من الاعتبارات البسيطة يجب الا نجعلها مقياسا للرجال وسبيلا لتعظيمهم واجلالهم فعلينا ان نقيس الرجال حقا حتى نعرف الصالح من الطالح فننزل كلا منزلته اللائقة به وعلينا ان نبتعد كما يبتعد السليم من الاجرب عن كل منافق دجال وننفر من كل كذاب أشر.

انهم حماة الدين ، انهم واضعوا اساس علم الاخلاق، انهم انصار الفضيلة ، نقبل كل ذلك ونقره لو وجدنا من اعمالهم ما يؤيد اقوالهم والحق «ان بين القول والعمل محيط» كما يقول الايطاليون فالى اولئك القوم اوجه السؤال أنظرتم الى انفسكم وجردتموها

سن آثامها وموبقاتها اولا ثم طرقتم باب الاصلاح ؟

انما تسيئون بعملكم هذا اساءة بليغة الى الاصلاح واهله ، وانكم تسيئون للدين وانتم حماته كما تزعمون ، وهادموا اركانه وتعاليمه كما تبرهنون باعمالكم ولست القي الكلام جزافا واسوق الحديث ملفقا ، بل عندي من البراهين الساطعة ما يجعلني اكتب بكل ثقة معززا ما اكتب بحوادث واقعية تدلنا على عدم صلاحية من كنا حتى الامس القريب نعدهم في مقدمة ابناء هذه البلاد ولكن اختباراتنا على قلتها ويقظتنا الاخيرة مكنتنا من الوقوف على سوء نية اولئك القوم الذين نرجو ان يقلعوا عما تعودوه مهما اعترضتهم المصاعب حتى تردهم الامة الى مصاف ابنائها العاملين الذين اخذوا على عاتقهم ان يخدموها خدمة صادقة مضحين في سبيل ذلك بالنفس والنفيس .

كشف الستار

(٣)

« نشر بمجلة النهضة في ٦ـ٣ـ١٩٣٢ بالعدد ٢٣ »

الموقف المشرف :

قد عرفنا مما تقدم حقيقة طبقة كنا حتى الامس القريب نعدها في مصاف العظماء . أما وقد تبين لنا أمر اولئك القوم جليا فيجدر بنا ان نفكر في موقفنا ازاءهم وان نرسم خطة حكيمة نسير بموجبها فاقول : علينا ان نحتقر ما يظهرون به من زهد ملعون بل واجبنا ان نستكثر عليهم حتى الاحتقار والاضطهاد وانه لمن الخطل في الرأي ان نعتبر لمثل هؤلاء عقولا راجحة بل ولو سلمنا جدلا بعقلياتهم فانهم لا يستعملونها الا في طريق معكوس ويستخدمونها لنيل اغراضهم الفردية ضاربين بمصالح بلادهم عرض الحائط يعشقون الظهور ويحبون الشهرة حبا جما ولكنهم يمقتون الشرف ويعادون العمل فلا يمكنهم بلوغ امانيهم والعثور على ضالتهم الا على اكتاف مواطنيهم وعلى حساب الغير .

لقد عرفنا شهرتكم المزيفة التي توصلتم اليها بفضل اعمالكم المتقنة وعقولكم الراجحة !! ولكن شئنا ان ندعوها باسم اخر ـ

مدفوعين بالحسد كما تظنون ـ فنقول انها الدناءة بعينها والرذيلة مجسمة تريدون العلو بوسيلتكم الخاصة . وهو وايم الحق عين النزول .

وما اشد اعجابي بقول شاعر سوداني محب لوطنه يغار عليه ويحرص حرصا شديدا على نفعه وقد قال بيتا من الشعر يصف فيه هذه الطبقة المولودة وكثيرا ما كنت اردد هذا البيت وكثيرا ما كان يردده احد اصدقائي واني لاعلم مقدار وطنية هذا الصديق الذي هامت نفسه بحب بلاده .

قال شاعرنا :

ان الترقي الى العليا بلا ثمن
هو التولي عن العلياء بالثمن

ما لهم والعلياء يريدون حفظ انفسهم وهم ضعيفو النفوس قليلو المعلومات ولكنهم مع ذلك طامحون لهم مثل اعلى في الحياة فهل نلومهم ان سعوا الى تحقيقه عن اقرب سبيل ؟

سيروا في سيرتكم فانكم غير ملومين ولكن اخبرتكم من قبل ان الطريق الى المجد وعر شائك فاعتذرتم وقلتم لا حيلة لنا بتجشم المصاعب وركوب الاهوال وفضلتم الغيبة والنميمة والرياء والملق والكذب وما دامت هذه الصفات توصلكم الى غايتكم في الحياة فلا تثريب عليكم ان اتصفتم بها سواء حرمها الدين ام اجازها .

اخواني ، مواطني ، هذه اعمال بسيطة طريقها سهل لا تكتنفه وعورة ولا يتطلب مغامرات ولكن دونها سلب العرض دونها قتل الشعور دونها موت النفس دونها بيع الضمير والاتجار بماء الوجه وصوت الشباب يرتفع مرددا :

« ولكن ماء الوجه عندي غالي »

ثم يردد قول الشاعر

اذا انا لم ارفع الى المجد امتى فلا عزني خال ولا ضمني أب

هذا هو الموقف المشرف الذي يجب ان يقفه الشبان مهما لاقوا في سبيله من عنت العابثين وظلم الظالمين ـ الاحتفاظ بالكرامة النفسية وان كان في تمسك المرء بكرامته وصونه لعرضه واتباعه لما يوحيه اليه ضميره عناد الحاد فليعلم الملأ وليسجل التاريخ اني اول المعاندين وشيخ الملحدين !!

مقياس الشباب عندهم :

الخامل من الشبان الذي يخضع لآرائهم وينصت لكلامهم كأنما هو في حضرة انبياء مرسلين لا بشر مثله يخطئون ويصيبون هذا الذي وصفت لم يختر هذا الموقف الا لجهله وضيق معلوماته فانه لا يملك ما يقول فماذا يقول ؟

مثل هذا الشاب في نظر سادتنا كريم الاخلاق واثق من علمه « لان الصمت زين » .

وهو حسن التربية مؤدب ويجب على الشبان قاطبة ان يحذوا حذوه وينسجوا على منواله وكثيرا ما دهش بعض الشبان وعندما يوصيه احد الادباء بتقليد ذلك الشاب الخامل الذي عرفه في الحياتين المدرسية والعملية فلم يجد فيه صفة من صفات الكمال والرجولة حتى يقلده فيها واخيرا يشتد حنقه على هذه الحياة ويقول :

خلق الزمان عداوة الاحرار .

رأينا حكمهم على الشاب الخامل وحبهم له ودعايتهم لمبدئه في الحياة او بالاحرى لتجرده عن ان مبدأ في الحياة اللهم الا ان تعد الاكل والشرب الى غير ذلك من الحركات الميكانيكية التي لا تحتاج الى اجهاد ولا تفكير مبادىء سامية .

أما الشاب صاحب الرأي السديد والمبدأ القويم ذلك الشاب الذي توصل بفضل اجتهاده واطلاعه على القيم من الآراء واستيعابه لها والذي كون نفسه بنفسه ولم يقنع بالقليل من حطام الدنيا الزائل بل عشق الحرية والجمال عن خبرة وتغنى بهما عن اساتذة عرفوا الحياة حق المعرفة فظهر له خطأ مذهبهم وطيش اقوالهم ثم حاول ان يردهم الى الصواب بالتي هي أحسن ولكن دون ملق ولا رياء بل بالصراحة المعهودة التي افعم بها قلب كل من عرف فن الحياة .

مثل هذا الشاب الذي كون بكثرة اطلاعه على الآراء القيمة رأيا مستقلا ثم تأكد من سداد رأيه بالتجربة والاختبار فثبت عليه ولم يرض عنه بديلا — هذا الشاب قليل ادب ان تسامحوا معه ومدع للفلسفة ان تملقوه وملحد — والعياذ بالله — ان انصفوه !

احامكم يا قوم جائرة قاسية لا يقبلها عقل ولا يجيزها منطق فاحكموا بالعدل ولا تبخسوا الناس اشياءهم وخير لنا ان نحيا حياة فوضى من ان نلجأ الى الاحتكام عندكم فنحن الان لا نؤمن بتفكيركم المعكوس واني لمن عرف الحقيقة ان يتحول عنها الى الباطل وهل يسعى الى الظلام من وصل الى النور ؟

ومن درس الحكمة لا يخدعه الجاهلون ولا يضله الضالون .

سنسبر غور الحياة بدون الاستنارة بآرائكم لانكم لم تغامروا حتى تعرفوا الحياة الحقة ونود أن نسلك سبيلا وعرا يوصلنا الى المجد والسؤدد لان سبلكم سهلة كما ذكرت لن نرضى بها لان مرمانا يختلف عن مرماكم كثير .

« ومن طلب العلا سهر الليالي » .

الفوز لمن ؟ :

فالشاب السوداني احد رجلين اما ان يخضع لاختبارات اجريت في عهد مظلم ويتمسك بآراء اكل الدهر عليها وشرب ليحفظ مركزه الادبي ويذكر اسمه مقرونا بالدعاء الطيب والتوسلات لله أن يكلأه بعين رعايته وبذلك يتجنب سخط الساخطين ويأمن من تذمر المتذمرين فيعيش في حصن حصين من الدعة والطمأنينة اما ان يسلك هذا السبيل او يتمسك بمبدأ شريف ويتفانى في تحقيقه مهما كلفه ذلك من التعب ومهما جر عليه من الرزايا ثم يرسم لنفسه خطة قويمة تقربه رويدا رويدا من مثله الاعلى ـ ويجب ان يكون لكل شاب ناهض مثل اعلى يسعى الى التقرب منه مضحيا في سبيل ذلك بكل محبوب نفيس ـ دون الشاب احد امرين فليختر لنفسه ما يحلو .

اما رأيي فان البون شاسع والفرق عظيم بين الشابين فالاول جبان رعديد همه في الحياة حفظ السمعة ولو من رجل الشوارع الذي لا يفرق الضار والنافع والغث والثمين فضلا عن كونه ذنب لا رأي له بل تابع مقلد لمن سبق وصفهم وعرفت طريق تفكيرهم ونظرهم الى الحياة .

واذا كان الغراب دليل قوم ...

أما الثاني فهو الذي تنظر اليه بلاده متلهفة وهي في اشد الحاجة الى امثاله وارجو الاكثار منهم حتى ينتشلوها من البلوى التي حلت بها ويقودوا سفينتها بجرأة وحكمة حتى ترسو بهم عند ساحل النجاة والسلام وقد نلاحظ تكاثر هذا النوع من الشبان الذين اخذوا على عاتقهم ان يقدموا كل تضحية في سبيل رفع مستوى وطنهم المادي والادبي كما اني بهذه المناسبة يجب على ألا اهمل بعض شيوخنا الذين ارجو الا يعتبروا تلك الحملة عامة فما هي الا لفئة موبوءة اسأل الله ان يشفيها من امراضها الكثيرة لاننا نتوق لكل ما يرفع مستوانا الاخلاقي وفي انتشال تلك الطبقة وعودتها الى المجتمع سليمة لا سقيمة نفع بليغ لا يعادلـه نفع وعليه ارفع صوتي عاليا الى الفئة الصالحة منهم ان تهديهم الى سواء السبيل وبما ان شبيه الشيء منجذب اليه فاني واثق ان نصح آبائنا لبعضهم سيكون اجدى وانفع وليعلموا ان ابناءهم الذين تسامحوا اجيالا ضاق صدرهم ولم يلق التسامح لديهم مكانا فليعذرونا اذ التبعة عليهم .

لنعد الى الشبان ولنفكر قليلا في امرهم ثم لننظر لمن كانت الغلبة في النهاية ـ هل نال الخلود المذبذب المرائي ام الحر الصريح ولمن كان الظفر لمن تملق وكذب أو من تمسك بمبدئه وصدقه ، للذنب المجرور او للرأس المرفوع ؟

تاريخ البشر على مختلف اقسامه يجيبنا بأنه لا يفوز بالظفر ولا يلوذ بالخلود الا القوي الجسور ومن طلبه من باب الدعة والاستكانة فقد بنى رجاءه على شفير هاوية .

وسنضرب بعض الامثلة من التاريخ الادبي او تاريخ تحرير الفكر البشري حتى نقف على ما قاساه دعاة تحرير الفكر من اهوال وعذاب وتنكيل من معاصريهم ثم نرى حكم التاريخ وانصافه لهم وتخليد اسمائهم ومنتجات عقولهم وغرضنا من ذلك شحذ الهمم العالية من ابناء هذا القطر حتى يلقي كل بدلوه عسى ان تجيء بكثير من الماء القراح حتى يرد منهله مواطنوه المتعطشون للمعرفة الظمأى للحكمة وأملي ان اوفق الى ذلك في مقال تال ...

(انتهى)



المراجع



أهم مراجع الكتاب

١ ـ التجاني شاعر الجمال ـ للدكتور عبد المجيد عابدين (الطبعة الثالثة)

٢ ـ تاريخ الثقافة العربية في السودان للدكتور عابدين (الطبعة الاولى)

٣ ـ دراسات في شعر التجاني ـ لجماعة الادب السوداني (الطبعة الاولى)

٤ ـ مسائل في النقد ـ عز الدين الامين

٥ ـ روائع شعراء الجيل ـ محمد فهمي

٦ ـ شعراء مجددون ـ مصطفى عبد اللطيف السمرتي

٧ ـ النقد الادبي ـ أحمد امين

٨ ـ الشعر الحديث في السودان ـ الدكتور محمد ابرهيم الشوش

٩ ـ الطبيعة في شعر المهجر ـ أنس داود

١٠ـ محاولات في النقد ـ محمد محمد علي

١١ـ الشاعران المتشابهان ـ ابو القاسم محمد بدري

١٢ـ الشابي ـ الدكتور عمر فروخ

١٣ـ الشعر الحديث في السودان ـ عبده بدوي

١٤ـ ملامح مـن المجتمع السوداني ـ حسن نجيلـه (الطبعة الثانية)

١٥ـ موت دنيا ـ محمد احمد محجوب وعبد الحليم محمد

١٦ـ صوق الذكريات ـ سليمان كشة

١٧ـ الحياة الروحية في الاسلام ـ محمد مصطفى حلمي

اعداد متفرقة من الجريدة التجارية ، وملتقى النهرين ، والفجر ، والنهضة السودانيـة ، ومعهد ام درمان ، وام درمان وابولو والرسالة .

فهرس الكتاب



مطابع دار الثقافة
سميا



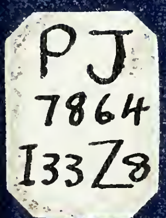







UNIVERSITY OF TORONTO
VELUT ARBOR ÆVO


3 1761 05610586 9


PJ
7864
I33Z8